حبات السكر المرة

ياسمين البطل

جميع حقوق الطبع و النشر محفوظة

الطبعة الأولى يناير ٢٠٢٠

الكتاب : حبات السكر المرة

المؤلف : ياسمين البطل

تدقيق لغوي : هدير محمود

تصميم الغلاف : محمد دربالة

رقم ايداع : 19889 - 2019

ترقيم دولي: 978-977-85556-1-5

دار مسار للنشر و التوزيع

01020439639

massar.pub1@gmail.com

ش - حسن خطاب - قسم يوسف بيك
- الزقازيق - الشرقية

ياسمين البطل

حبات السكر المرة

مسار
للنشر و التوزيع

إهداء

أهدي أول نبتة أدبية نمت من يداي بعدما سقيتها طويلا إلى زهرة فؤادي وحبيبة روحي أمي أغلى ما أملك في دنياي وأبي سراجي في الظلام ومأمني وأماني، ورفيقة دربي وروحي ومن يسكن سويداء الفؤاد، وكل معلم ومعلمة أهداني علما نافعا

صوت صفير منخفض كان مصدره مروحة السقف التي توسطت سقف الغرفة، والذي زحفت عليه الشقوق،والصدوع، وتساقط منه معظم الطلاء فظهر كأرض بور يابسة، الغرفة متوسطة الحجم، بها منضدة متهالكة تحمل فوقها الكثير من الأدوية، وكومة مناديل بعضها نظيف، وبعضها الآخر يظهر عليه آثار طعام جافة، وصحن صغير به حساء من الشوربة التي أصبحت باردة بعدما تركت كثيرًا في الهواء. يبدو أن هناك أحد ما لا يحب الشوربة فلا يتناولها، ويتركها حتى تبرد هكذا، وهناك أيضًا كوب زجاجي على حافة المنضدة مملوء بالماء حتى نصفه، وفي وسط الغرفة يوجد سرير صغير يرقد عليه رجل على مشارف السبعينيات من عمره، جسده نحيل، وشعره كثيفًا أبيض كالثلج، يضم ركبتيه إلى صدره، وينظر إلى الفراغ أمامه، قطع الصمت الذي يملئ الغرفة صوت الباب يفتح ثمَّ دخل رجل بدين يرتدي سترة سوداء فاخرة، وفي يده ساعة ذهبية ملفتة للنظر، تقدم بخطوات ثابتة داخل الغرفة، وتَبِعه شاب في مقتبل العمر ذو بشرة خمرية، طويلًا مفتول العضلات، تحدث الشاب قائلا:

- أكاد أجزم لك يا سيد مختار بأنَّ تلك الدار من أجدر دور المسنين التي زرتها فقد وجدت هنا رعاية فائقة بالمسنين، واهتمام كبير بنظافتهم الشخصية، ونظافة أماكنهم، ولكن دعني أسألك لما لا أرى هذا الاهتمام يصل إلى تلك الغرفة فتنال منه نصيب؟ لما هذا العجوز البائس يرقد وسط حجرة كالمقبرة، وملابسه مهترئة، وطعامه فاسد بجواره؟ لمْ أكن أرى كل هذا الإهمال لو لمْ أصر على دخول تلك الغرفة.

تحدث الرجل البدين بنبرة متوترة قائلا:

- يا سيد علي أنت رأيت بعينيك اهتمامنا الواضح بالمسنين كافة، ولكن ذاك الرجل قد احترنا في أمره كلما جاء أحد ليبدل له ملابسه يتشنج، ويبكي ويصرخ، فنضطر أن نبتعد عنه ونتركه، وحالته الصحية لا تسمح له إلا بتناول هذا الطعام لكنَّه لا يأكل منه شيء، ومع مرور الوقت مل منه العاملون، وأصبحوا يتجاهلون أمره، فقط يقومون بأداء لوازمه الأساسية، وهو نائم ويتركونه كما هو.

ظهر الغضب على الشاب وتحدث قائلا:

- ماذا تعني بحديثك هذا فأنا أتبرع بالكثير من الأموال كي تتصرف في أمور كهذه، عليك أن ترى إن كان في حاجة إلى العلاج النفسي، والجسدي، ولكن لا تتركه هكذا، وإلا سأرفع ضدك شكوى قد تطيح بك، وبمكانتك يا سيد مختار.

تلعثم الرجل، وأشار برأسه بالموافقة فطلب منه الشاب أن يتركه مع العجوز وحدهما فلبى الرجل طلبه، وخرج وأغلق باب الغرفة خلفه، ظل علي صامتا عدة دقائق يتأمل العجوز النائم على سريره فقد كان كطفل صغير نائم، ثمَّ جذب كرسي متهالك كان مُلْقَىً على الأرض في جانب الغرفة، وقربه من سرير العجوز وجلس أمامه مباشرة فسرح في ملامحه وقسمات وجهه، وكأنَّه يرى عجوزًا لأول مرة ظل يتأمل التجاعيد التي استوطنت وجهه، واستباحت كل جسده، شعر بشيء ما يجذبه إلى هذا العجوز لا يدري ما هذا الشعور، ولكنَّه تملكه شعر بأنَّه يعرفه فحدث نفسه بأنَّه من المحتمل أن يكون رآه من قبل في أي مكان، ظل على حاله هذا يتأمل العجوز عدة دقائق حتى انتفض مفزوعًا وعاد بجسده للخلف عندما فتح الرجل عينيه فجأة دون سابق إنذار، فجمع شتات نفسه واعتدل في جلسته ليظهر في هيئة متماسكة، ورسم ابتسامة عريضة على شفتيه، ظلَّ هكذا بضع ثوان، ولكنَّه لم يتلق أي رد فعل من العجوز فقد كان ينظر للفراغ، ولا يعيره أدنى اهتمام، تنحنح الشاب وقد اعتراه الارتباك، وتحدث في هدوء قائلا: مرحبا أيُّها الجد اسمي علي وجئت لزيارتك، كيف حالك؟ هل تشعر بألم؟ هل أنت جائع؟ كانت تلك سلسلة من الأسئلة التي سألها الشاب محاولًا نزع أي كلمة من فم العجوز، ولكن دون جدوى.

في اليوم التالي ذهب علي إلى الدار مرة أخرى، وكان ذلك على عكس عادته فزيارته تتكرر شهريًا، أو أسبوعيًا على أقل تقدير، ولكن لم يحدث من قبل أن يذهب في يومين متتاليين، والعجيب أنَّه توجه مباشرة إلى غرفة العجوز، وكأن تلك الزيارة كانت له هو تحديدا، طرق الباب، ودخل ليجد العجوز مستلقيًا على ظهره وينظر أمامه كعادته فكان كجثة متصلبة لا تسري فيه علامات الحياة إلا في عينيه المفتوحتان، اقترب منه وجلس على الكرسي بجواره، وبدأ يتحدث إليه غير مباليًا بصمته فراح يذكره بأيام فاتت منذ زمن، وذكر له أحداثًا مهمة حدثت عندما كان العجوز شابًا، فقد كان الشاب متعمدًا ذكر أحاديث تهم العجوز، وقد تكون له معها بعض الذكريات فيحن لها ويتحدث، لمْ يمل الشاب من الحديث وراح يُكْثِر من الحديث حول الزمن القديم، ومميزاته ولم يوقفه إلا صوت العجوز حينما بدأ في سعال شديد فهرع الشاب، وناوله كوب الماء فتناوله العجوز بيد مرتعشة فساعده الشاب في الشرب حتى ارتوى، وتمدد بجسده على السرير مرة أخرى بعد أن رمى علي بنظرة خاطفة، وعاد لينظر أمامه مرة أخرى، شعر الشاب بأنَّه حقق إنجازًا كبيرًا فتلك النظرة تعني أن العجوز في وعيه، ومدرك لما حوله، ولكنَّه لا يحبذ الاستجابة فزادت حماسة الشاب في أن يواصل ما بدأه، في غرفة (علي) النائم بعمق كانت الأضواء خافتة، وهناك تيار هواء بارد خفيف

يحرك الستائر في هدوء، تململ في فراشه عندما سمع صوت ما يشبه الهمس ثمَّ علا الصوت تدريجيًا فأضحى يشبه الأنين، وشعر بحركة خفيفة على السرير فأدرك أن الصوت آت من خلفه، تملكه الخوف عندما اختلط الأنين بصوت حشرجة، فقرر أن يلتفت ليرى ما الذي خلفه، واستدار فتجمد مكانه لما رآه أمامه، كان ذاك العجوز مستلقيًا بجواره، وهناك شخص ما يطبق بيديه على رقبته، والعجوز يحاول التملص منه إلا أن صاحب اليد التي تقتله كان أقوى فهدأ جسد العجوز، وسقطت رأسه على الوسادة وكان ينظر إلى علي بعينين مفتوحتين منظرهما أفزع علي فانتفض من مكانه ليسقط على الأرض فقام مفزوعًا، ونظر على سريره لكنَّه كان خاليًا والغرفة بأكملها فارغة لا يوجد بها عجوز، ولا قاتل ولا أي أحد غيره.

كاد يجن جنونه فمستحيل أن يكون هذا حلم فقد كان مستيقظًا إنَّه واثق، ولكن كل شيء في الواقع من حوله يخبره بأنَّه مجرد حلم، نفض تلك الأفكار من رأسه، وقام ليستحم، ويذهب إلى عمله، لمْ يكن في حالته الطبيعية طوال يومه فقد كان ذلك الحلم يطارده، ويشتت تفكيره، أنهى عمله واستقل سيارته، وانطلق عائدًا إلى بيته، وبينما هو في الطريق كان شاردًا متعبًا فلمح وجه العجوز يظهر في مرآة السيارة ففقد السيطرة على السيارة، فانعطفت على جانب الطريق بقوة، وكادت تصطدم بشجرة كبيرة

إلا أنَّه نجا، بحث بعينيه في المقعد الخلفي ولم يجد أحد،حدث نفسه بأنَّه يجب أن يذهب لرؤية العجوز الآن فكيف لم يفكر منذ أن رأى الحلم أن يذهب إليه، ويطمئن على حاله، وانطلق بسيارته بالفعل متجهًا نحو الدار، وصل علي إلى غرفة العجوز، فتح الباب ودخل فوجده نائمًا، أغلق الباب خلفه وجلس على الكرسي بجواره وظل ينظر إليه، شعر بحيرة وحسرة فهو لا يعرف ما الذي يفعله هنا، ولماذا جاء، ولماذا أعطى ذاك الحلم مساحة كبيرة من تفكيره، وأخيرًا قرر أن يبتعد عن ذلك الرجل فمنذ أن رآه، وهو يشعر بأشياء غريبة، ولا يتوقف عن التفكير فيه ربما كان ذلك لسوء حالته فتأثر به، ولكن حتى إن كان الأمر كذلك فيجب أن يضع له حد وينهيه.

كاد أن ينهض إلا أنَّه رأى العجوز يتحرك بهدوء حتى استيقظ، ونظر إلى علي باستغراب، وكأنَّه يتسائل ما الذي جاء بك إلى هنا في تلك الساعة، مد العجوز يده ناحية كوب الماء فناوله إياه علي، كان سيجلس على الكرسي مرة أخرى إلا أن استوقفه صوت رنين هاتفه فاستدار، وتحدث قائلا:

- نعم، أنا علي أسعد الهواري، وما أن أنهى جملته حتى أفزعه صوت ما من خلفه فنظر ليجد كوب الماء سقط من يد العجوز، وتهشم على الأرض، ورأى العجوز يرتجف فترك الهاتف غير مباليًا بمن يحدثه، وأسرع نحو العجوز وهدأه، ولكن العجوز كان

يرتجف أكثر كلما لمسه فابتعد علي، وقام بإحضار عامل لينظف الزجاج، وخرج من الغرفة وفي رأسه ألف سؤال وسؤال جديد فحيرته تتزايد لماذا سقط الكوب فجأة من يده إثر سماع اسم علي هل يجوز أن تكون صدفة، ولكن إن كانت صدفة لما رفض أن يلمسه علي، ولماذا انقلب حاله رأسا على عقب وراح يرتجف هل يعقل أن يكون كل هذا صدفة!

في غرفة علي مجددًا كان غارقا في سبات عميق ثم استيقظ على نفس الصوت صوت الهمس الذي علا، واختلط بحشرجة ففتح عينيه ليرى نفس المشهد العجوز نائم بجواره، وهناك أحد ما يحاول خنقه ولكن تلك المرة تبينت ملامح تلك الرجل فصرخ علي في فزع عندما تبين ملامح والده، وبعد ثوان انتهى كل شيء مرة أخرى، ولكن كاد رأسه ينفجر ما دخل أبيه في هذا الحلم، ولم كانت ملامحه بتلك القسوة ترى هل يعني هذا الحلم شيء هل يحمل مغزى، أمْ أنَّه مجرد حلم؟

لم يهدأ له بال فقد قرر أن يذهب إلى إدارة الدار إنَّه يريد معرفة كل شيء يخص هذا العجوز الغامض، وبالفعل ذهب إلى هناك، وطلب ملفه الخاص لم فكانت الصدمة كان الاسم المكتوب هو (علي حسين الهواري) كانت عيناه مفتوحتان فهو لا يدري ما هذا الذي يرى، وما معناه هل يعقل؟ هل يعقل أن يكون ما يفكر فيه صحيح، في مكتب والده صاحب أكبر شركات داخل،

وخارج البلاد، ولديه ثروة طائلة فهو رجل ثري يمتلك الكثير من العقارات، والمزارع، والشركات، والمصانع، وقد أغدق على ابنه الوحيد (علي) من أمواله، دخل علي مكتب والده، وسلم عليه ثم جلس، وكان الارتباك واضح على وجهه ثم سأله فجأة:

- أنت لم تحدثني، ولا مرة عن جدي أنا أعلم أنَّه على قيد الحياة، ولكن أين هو ولما لا تحدثه، ولا تزوره، ولا تجعلني أعرف عنه أي شيء؟

تصلبت ملامح والده بعد أن كانت لينة، وأجابه بنبرة حادة:

- وأنت لم تسألني عنه يومًا، وأنا لم أخبرك، فقال علي: ها أنا ذا أسئلك الآن فأجبني، فجائه صوت والده متوترًا بعض الشيء، وقال: جدك قد سافر بعيدًا منذ زمن بعيد، وأنا لا أعرف عنه شيء، وبحثت عنه، ولكني لم أصل إلى أي معلومات حتى إنني لا أعرف إن كان حيا أم ميتًا. أصاب علي الشك من إجابة والده، وامتلأت رأسه بالمزيد من التساؤلات... دقت عقارب الساعة معلنة منتصف الليل، يفتح علي عيناه ببطء فيرى أمام عينه سقف الحجرة المليء بالتشققات، والطلاء المتآكل، لم يستغرق الكثير من الوقت ليدرك أنَّه ليس بغرفته فهو يعرف ذلك المكان جيدا، ويألف هذا السقف وتلك الجدران الباهتة، حاول أن ينهض من ذاك السرير الصغير الرابض في منتصف الغرفة، ولكنَّه شعر بشيء ما يقيده نظر فلم يجد أي قيود تمنعه من الحركة، ولكنَّه عاجز عن التحرك، كادت

رأسه تنفجر من التساؤلات فكيف جاء إلى غرفة العجوز، وعلى سريره، وأين العجوز؟ كل تلك التساؤلات شكلت ريحًا عاصفة تعصف بذهنه وتكاد تمزقه، كان الضوء خافتا في الغرفة يميل إلى الحمرة، وكان الهدوء سيد الموقف إلى أن كسر الصمت صوت ما، تلفت علي برأسه يمينًا، ويسارًا ليرى مصدر الصوت، والذي كان مصدره الجدران اتسعت عيناه، وزحف الخوف في أوردته، كان المشهد يبدأ من جدران الغرفة التي كان طلائها يتآكل ببطء مصدرًا صوت خشن، ويتساقط على الأرض ثم بدأ شيء ما يخرج من الجدران، كان عبارة عن سائل أسود يسيل ببطء، ويزحف على الجدران فيختلط بالطلاء الذي يتآكل، ويسقط، وما أن لامسًا الأرض حتى تتطاير الطلاء، وكأنَّه تحول لرماد يتطاير في الغرفة ببطء.

حاول علي أن يفك قيوده الخفية التي يشعر بها، ولا يراها فاشتعل غضبه، وراح يصرخ ولكنَّه شعر أن الجدران تبتلع صوته مهما حاول أن يصرخ، ظل يحاول حتى توقف عن الحركة عندما رآه في أحد جوانب الغرفة يجلس على ركبتيه، ويرتدي ثوبًا أسود، ويحمل بين يديه كتابًا ضخم متهالك، ومهترئ، كان يدير ظهره لعلي، وبدأ يقرأ من الكتاب بصوت يعلو تدريجيًّا، وبدأ جسده يرتعد ويرتعد حتى سقط على الأرض، وما زال يرتجف وقد زادت سرعة السائل الأسود الزاحف على الجدران، وبدأت قطرات منه

تتساقط من السقف على يده، ووجه حتى ملأت جسده كله، وزادت سرعة تطاير الرماد في الغرفة ثم غرقت الغرفة بأكملها في محيط من الظلام.....

علي...

علي...

هل أنت بخير؟

جاء صوت والده يحدثه ففتح عينيه بحذر ليقابل وجه والده القلق، فوثب من مرقده بسرعة، وراح يتحسس جسده بيده وينظر إلى نفسه في المرآة مِمَّا أثار قلق والده أكثر فاحتضنه، وسأله ما الذي يحدث معه فلم يجب، وتملص من بين ذراعي والده واتخذ قرارًا بأن ينهي كل هذا الهراء...

بعد قليل من الوقت الذي استغرقه في طريقه إلى الدار وصل إلى غرفة العجوز فدخل، وأوصد الباب، وأحكم إغلاقه جيدًا، واقترب من العجوز الذي فتح عيناه ببطء، اقترب منه علي ثم راح يدور في الحجرة، ويسير ذهابًا، وإيابًا حتى توقف فجأة وصرخ بشدة في العجوز قائلا:

- من أنت، وماذا تريد مني، وإن لم يكن تشابه أسماء، وكنت جدي حقيقة فلماذا أنت هنا، وراح يعنفه، ويمسكه من ثيابه، ويحرك جسده بشدة حتى تألم العجوز، وسعل سعالًا شديدًا، فتركه علي، وعاد بضع خطوات، ونظر في عين العجوز، وما أن

تلاقت أعينهما حتى شعر بدوار شديد فأغمض عيناه لا إراديًّا ثم فتحهما ليجد نفسه في غرفة واسعة مرتبة، مهلًا إنَّه يعرف تلك الغرفة جيدًا إنَّها تلك الغرفة التي في منزله، والتي حرم والده على أي شخص أن يدخلها، قطع تفكيره شخصًا ما دخل الغرفة رباه إنَّه والده دخل، واقترب من العجوز النائم على السرير.

نعم إنَّه هو ذاك العجوز، اقترب علي من والده، ولكنَّه اكتشف أنَّه لا يراه فأدرك علي أنَّه هنا مشاهد فقط، وبدأ والده يتحدث إلى العجوز بعنف، وصرخ فيه قائلا:

- هل ستظل تعاند هكذا؟ أخبرتك إمَّا أن تتنازل لي عن كل أموالك، وأتركك تحيا، وأسمح بعلاجك، وإمَّا سأقتلك، وحينها سأخذها دون عناء، اتسعت عينا علي، وحَزِن لما سمعه ورآه، ثمَّ رأى رجل آخر يدلف إلى الغرفة، ويتحدث مع والده فعرف علي فيما بعد أنه محامي، قال الرجل:

- يا سيد أسعد أنا أرى أن تتراجع عن قرارك فإن قتلته ستدخل في متاهات كثيرة، وطرق طويلة، وسيتم توزيع الأموال على الورثة جميعًا أمَّا إن أبقيته على قيد الحياة فسيمكنك التحكم في أمواله كما تشاء دون أن يلاحظ أحد فما ستفعله أنَّك ستعطيه هذا العقار باستمرار سيقوم بشل حركته كليًّا، ولكن سيبقيه على قيد الحياة، خرج الرجلان، وظل علي متصلبا مكانه لا يعلم ما الذي عليه فعله، حتى لمح العجوز ينهض ببطء مستندًا على عكازته،

وسار إلى مكتبته في الغرفة، وراح يقلب في الكتب التي كانت جميعها في مجال واحد هو علم ما وراء الطبيعة، والعالم الآخر، والميتافيزيقا، والكثير من هذا النمط، حتى استقرت يداه على مجلد ضخم أخذه، وارتدى عباءة سوداء، وجلس على الأرض وراح يقلب في صفحات الكتاب الذي قرأ علي عنوان الغلاف (الحراس) حتى توقف عند صفحة ما وراح يقرأ كلمات غير مفهومة، ويعلو صوته تارة، ويخفت تارة أخرى حتى رآه علي يرتجف، ويزداد ارتعاد جسده فقام من جلسته، وأصبح واقفًا، وظل يردد الكلمات نفسها، وبدأ جسده يميل للأمام، ويعود للخلف مرة أخرى بسرعة شديدة ظل يرتعد، ويتمايل حتى سقط على الأرض، وعمَّ الصمت وساد الظلام مرة أخرى...

جاهد ليفتح عيناه المثقلتان ليجد نفسه في غرفة أبيه، وهناك أشخاص كثيرون في الغرفة، ووالده نائم على سريره بلا حراك،اقترب منهم ليسمع أحدهم يقول: قلت لكم الأمر ليس متعلقًا بالأطباء فقط اصغوا لي، وسترون أنني على صواب، فصاح رجل به:

- ما هذا الهراء الذي تتحدث عنه هل جننت أتريدنا أن نسير خلف مشعوذين محتالين؟، وعنف الجميع هذا الرجل لفكرته الحمقاء، وخرجوا من الغرفة، ولم يتبق سوى ذاك الرجل، والمحامي فاقترب المحامي من الرجل قائلا:

- اسمع أريدك أن تأتي بهذا الشيخ هنا دون علم أحد، فقال

الرجل إنَّه معي هنا، ومنتظر في الخارج، دخل الشيخ، وقام ببعض الأمور التي لم يدركها علي لكنه أنصت لحديثه للرجلين الذي يقول: هناك لعنة مسلطة على جسد هذا الرجل، وكان ما فهمه علي أن جده كان يسخر الجان، وكان يستعين به، ولمَّا رأى قسوة ابنه، وأنَّه يريد أن يقتله من أجل الحصول على أمواله سخر جان يحميه منه، وإن تعرض له بالأذى فتصيبه لعنة العهد الأسود الذي أبرمه العجوز، وبالفعل عانى الرجل من داء، ولم يستطع جل الأطباء تشخيصه، أو علاجه، وقال الشيخ أن الحل الوحيد هو إبعاد العجوز عن المنزل، وإغلاق غرفته، وألا يدخلها أي شخص، وإلا سيروح ضحية لهذا العهد الأسود. صعق علي من وقع تلك الجملة على أذنه، وتذكر عندما كان صغيرًا، وأستطاع أن يدخل الغرفة في غياب والده، ووجدها غرفة عادية فخرج، وكأن شيئًا لم يكن،هل يقصد هذا الرجل بأنني سأكون ضحية هذا العهد، ولذلك يحدث كل هذا معي، كانت تلك تساؤلات علي داخل رأسه، أفاق من شروده ليجد نفسه داخل مكتب والده، ورأى والده يجلس على مكتبه في صحة جيدة، ويجلس معه ذاك المحامي، وسمع أبوه يقول:

- وبذلك بعدما وضعته في الدار قد تخلصنا منه فهو الآن بعيد عن البيت، وغرفته محكمة الإغلاق، وأمواله لي، وبسرعة البرق تبدلت معالم الغرفة ليجد نفسه أمام سرير العجوز في غرفته الباهتة في

الدار، فزع علي، وعاد للخلف عندما وجد السرير فارغًا!!
العجوز لم يكن نائم بسريره لأول مرة، ترى أين ذهب فهو مشلول لا يستطيع الحراك! خرج من الحجرة، وعلى وجهه علامات الجنون، سأل أحد العاملين أين ذهب العجوز الذي كان في تلك الغرفة؟ فنظر العامل للغرفة، ونظر لعلي قائلا:
- أي عجوز تقصد تلك الغرفة فارغة منذ خمس سنوات!!صعق علي مما سمع، وقال للعامل:
- كان هناك عجوز في تلك الغرفة أنا رأيته، وكنت أزوره كثيرًا، فتحدث العامل:
- يا سيد علي تلك الغرفة لم يسكنها أحد منذ خمس سنين، ومن ذاك الحين سميت بالغرفة المشئومة فمنذ أن جاء ذلك العجوز، وبدأت الأحداث المروعة تحدث الواحدة تلو الأخرى حتى أغلقتها الدار، ولم يدخلها أي مسن من يومها، فسأله علي عن أي عجوز تتحدث، وأين ذهب ذلك العجوز، وما اسمه؟ سكت العامل، ولم يجب فأعطاه علي بعض المال فأطلق للسانه العنان قائلا:
- منذ سنوات طويلة جاء عجوز إلى الملجأ هنا كان شبه ميت، ومشلول كليًّا، كانت الأمور تسير على طبيعتها قبل مجيئه، ولكن منذ قدم إلى الدار، وبدأنا نسمع عن أشياء غريبة، والأشخاص المسؤلِين عن رعايته كانوا يروون قصصًا غريبة عن أشياء يسمعوها، ويرونها، ولكن لم يصدق أحد حتى اختفت إحدى

العاملات، وكانت مسؤولة عن الفترة الليلية مع العجوز، وبعدها انتحر عامل آخر في منتصف غرفة العجوز!. والكثير والكثّير من الأحداث حتى اختفى العجوز نفسه، ولم يجدوه حتى الآن، وانتشرت الكثير من الشائعات منهم من قال أن أهله أخذوه في السر حتى لا يتهم في مقتل العامل، ومنهم من يقول أنَّه كان يسخر كائنات من العالم الآخر، وهو الآن تحت الأرض، والكثير غيرها من الشائعات، صعق علي من هذا الكلام، وخرج من الدار محددًا وجهته فهو يعرف أن والده مسافر خارج البلاد، والمنزل خالي تماما، وصل علي للمنزل، وكانت الأضواء خافتة، صعد الدرج، وسار في ممر الغرف حتى وصل إليها تلك الغرفة المنشودة، أخرج الأدوات التي جلبها معه حتى يتمكن من فتح الباب، وبعد عناء طويل جدًا تمكن من فتحه.

كان داخل الغرفة ظلام، وكأنَّه من عالم آخر سواد قاتم، ورائحة كريهة مصدرها داخل الغرفة، تردد قليلًا ثم اقتحم الغرفة وأصبح في منتصفها الآن، حاول أن يجد مفتاح الكهرباء كي ينير المصباح إلا أنَّه تعثر في شيء ما فاختل توازنه، ومال ناحية باب الغرفة فأغلقه دون قصد منه، شعر بالرعب، وحاول إيجاد مكان المفتاح، أو أي شيء يفتح به الباب، ولكن فشل، فتوقف عن المحاولة، وأخرج قداحة من جيبه، وأنار بها أمامه وما أفزعه أنَّه رأى الجدران متآكلة، ومليئة بسائل أسود يشبه الدماء

المتجلطة فتذكر ذلك المشهد الذي رآه من قبل في غرفة العجوز في الدار، لاحظ أن شعلة اللهب المنبعثة من قداحته تتمايل، وكأن هناك رياح اصطدمت بها فتملكه الرعب؛ لأنَّه يعلم أن لا منفذ للهواء بتاتًا في الغرفة فظن أنَّها أنفاسه، ولكن أنفاسه لم تكن بتلك القوة، ظل هكذا لا يعلم ما الذي عليه فعله حتى شعر بشيء ما يحوم حوله إنَّه يشعر به جيدًا يشعر بحرارته، وخُيِّلَ له أنَّه سمع همس ما بجانب أذنه فظل يدور في الغرفة ليتفادى ذاك المجهول، وشعلة اللهب في قداحته زادت الأمر سوء فهو لا يرى بوضوح، وأثناء سيره تعثر بشيء ما في الأرض فنظر ليجده ذاك الكتاب نفسه ملقى بجوار المكتبة فانحنى ليلتقطه، وقبل أن يمد يده سمع صوت ما قريب منه للغاية فوجه قداحته ناحية الصوت، وصرخ صرخة مدوية حتى اصطدم بالمكتبة اللي تتوسط جدار الغرفة، والتي تحركت بدورها، وكأنَّها باب سري وبينما هو مستندًا عليها من إثر تعثره تحركت لتكشف عن باب خلفها فتحه بسرعة ليجد أمامه ممر مظلم، وبدون إرادته وجد نفسه داخل الممر، وسمع صوت الباب يغلق خلفه بشدة. بائعوا الجرائد يروجون لبضاعتهم التي تحتوي على الخبر الذي هز أرجاء البلدة جميعها فكل الجرائد أول خبر يتصدرها كان: اختفاء شاب في مقتبل العمر في ظروف غامضة، ووالده يعلن مكافأة تعادل ثروته الطائلة كلها لمن يعثر له على ابنه..

انتقام العشق

في ليلة ممطرة، تقف في شرفة منزلها متلحفة بغطاء يقيها شر البرد، تستقبل شذرات المطر التي تلامس وجهها فتبتسم ، بجانبها صوت الجرامافون يصدح بألحان فيروز، وهي تغني:

بعدك على بالي.. يا قمر الحلوين
يا سهرة بتشرين.. يا دهبي الغالي
بعدك على بالي.

كانت تردد معها الكلمات، وهي تتمايل في شجن، وحنين ، بعدما سيطر عليها العشق، وأوقعها في شباكه ، في أذنيها سحر فيروز، وفي مخيلتها صورة حبيبها، وفي عينيها بريق العشق، لا تمل من تذكر أول لقاء بينهما، عندما رأته في الترومواي يقرأ في جريدة في يده ، وحينما نظر إليها بالصدفة، وتلاقت أعينهما شعرت بدقة كبيرة في قلبها ، نعم إنَّها دقة الحب، تصببت عرقًا حينما رأته يبتسم لها، ويقترب منها:

- أنت ابنة العم سالم صحيح؟
- نعم، أنا، ماذا تريد؟

ضحك من طريقتها:
- ماذا تفعلين في تلك المنطقة البعيدة عن الحي خاصتنا؟
- لي صديقة هنا، ولي عندها حاجة فجئت لأقابلها.
- ومتى ستعودين؟
- لن اتأخر، رُبَمَا أحتاج ساعة واحدة، وأعود.
- جميل، إذا سنعود سويًّا، فلا يصح أن أرى ابنة العم سالم هنا، وأتركها تعود وحدها.
- حسنًا، نتقابل في تلك المحطة بعد ساعة من الآن.
- إن شاء الله.

رحلت، وقلبها يتراقص من الفرح، عاتبت نفسها قليلًا؛ لأنها وافقت على عرضه سريعًا دون أي محاولة اعتراض، ولكن جيد، فهذا ما تريده على أية حال.

عائلة العم سالم صاحب مصنع الملابس، وابنتاه: ليلى الابنة الكبرى، وجميلة الابنة الصغرى، والأم.

تحدثت ليلى إلى أبيها، وأخبرته بذاك الغريب الذي أوصلها للمنزل أمس، فعرفه والدها، وأخبرها أنَّه أحد العمال في المصنع. طرقات على الباب، تطلب الأم أن تفتح إحداهما الباب، رفضت ليلى القيام فاضطرت جميلة لفتح الباب، وجدت شابًا لم تراه من قبل فخجلت، وتوارت خلف الباب بسرعة.

- أنا آسف، ولكن العم سالم طلب مني أن أعطيكم تلك الأشياء،

فاضطرت للخروج من خلف الباب لتأخذ منه ما يحمل، ولكن تلامست الأيدي دون قصد ففزعت، وأسقطت ما في يدها على الأرض، فنزل كل منهما للأسفل في حركة سريعة ليلملم ما تبعثر أرضًا من طعام كان في الأكياس الورقية، وكان موقفًا محرجًا لكلاهما، ولكنَّه كان شاردا في ملامحها الطفولية رغم شبابها، وخجلها وتوترها، فكل تلك التفاصيل لم تمر عليه مرور الكرام بل تركت في قلبه أثرًا غريب، في تلك اللحظة خرجت ليلى من غرفتها لترى ما تلك الجلبة التي في الخارج فرأته يقف أمام الباب، ووقتها لم تر أختها، ولم تر أي شيء سواه، خفق قلبها بشدة، ومشت إليه بابتسامة واسعة، وعينين حالمتين.

- أنت! أقصد مرحبًا، هل هناك شيء؟ لا لا أقصد تفضل بالدخول.

نظرت إليها أختها في تعجب لكلامها، وتلعثمها، وتوترها الواضح، فرد عليها:

- مرحبا بك، لا شكرًا، أعطاني العم سالم تلك الأغراض، وطلب مني أن أعطيها لكم، وأشار إلى الأكياس التي تحملها جميلة، وهنا فقط رأت ليلى المشهد كاملًا، ورأت أختها الواقفة، وكأنَّها لم تكن تراها فعلا منذ ثوان، فشعرت بضيق؛ لأنها لم تقم هي لتفتح الباب، ونظرت لأختها بغضب، وطلبت منها أن تدخل ما تحمله إلى المطبخ، التفتت لتنظر إليه ولكنَّه كان أسرع فاستأذن سريعا ورحل، فتعجبت لما رحل بسرعة هكذا، ولماذا لم يحدثها، ولكن لا

يهم فهي واثقة من أنَّه جاء من أجلها، من أجل أن يراها، فربما شغفه بها حبًا كما أحبته هي.

تتسلل كل ليلة، وتتخفى خلف ستائر النافذة، وتسترق النظرات تبحث عنه بين عمال المصنع حتى تعثر عليه، فتظل تراقب حركاته وكل ما يفعل، يزداد حبها له كل يوم. لاحظت مجيئه لمنزلهم كثيرًا يحمل أشياءً يرسلها والدها، فاعتقدت أنَّه هو من يتحجج لحمل تلك الأشياء ليراها، قطع تفكيرها صوت طرقات على الباب فانتفضت، وحدثت نفسها بأنَّه هو فأسرعت الخطى، وخرجت من غرفتها، كانت جميلة تقترب من الباب لتفتح، ولكنَّها أوقفتها، وقالت لها بأنَّها هي التي ستفتح الباب، فتعجبت جميلة وتركتها تفتح، فكان هو بالفعل، تهللت أساريرها، خفق قلبها بشدة، ولكنَّها لاحظت أنَّه لا ينظر في عينيها بل ينظر خلفها، وكأنَّه يبحث عن شيء ما فنظرت خلفها، ولم تجد أحدًا فظنت أنَّه محرج من النظر إليها:

- على ماذا تنظر؟

- ها أنا؟ لا لا أنظر على شيء.

لاحظت توتره:

- تفضل.

- لا شكرا أنا فقط كنت اسأل عن... أعني إن كان ينقصكم شيء أشتريه لكم.

- لا ، لا نريد شيئًا، شكرا لك كثيرًا.

رحل سريعا كعادته، كان الأمر يتكرر كثيرًا، تقريبا يوميا يطرق بابهم ليعطيهم شيء، أو يخبرهم شيء فكان يستغل قربه من العم سالم، فيكلفه بأمور خدمة أسرته في شراء ما تحتاج. لم تكن عادتها زيارة مصنع أبيها، ولكنها فعلت، كانت تحمل في يدها أشياء ابتاعتها منذ قليل، فرأته يقترب، ويحمل ما في يدها بدلًا منها، وقال لها بأنَّه سيأخذهم للمنزل، لمعت عيناها من الفرح، وظنت أنَّه سينتظر جولتها أمام الملابس في المصنع ثم يصعدا سويًّا هو يحمل الأشياء، وهي بجانبه، وهامت في أحلامها، وقلبها يود الخروج من صدرها ليعانق قلبه، ولكنها تنتظره يبادر بأي شيء، عادت من شرودها حينما رأته يخرج من المصنع وحده، فتعجبت! لماذا لم ينتظرها ليصعدا سويًّا؟، وما الفائدة من صعوده بالأشياء، وهي ليست بالمنزل، تساءلت في نفسها، ألم يكن يأتي للمنزل كل يوم ليراها!، ألم يكن كذلك!، أسرعت الخطى، وعادت للمنزل فلم تجده هناك، سألت أمها عن أشيائها، فقالت لها أن فلان أحضرها منذ قليل، سألتها من الذي أخذها منه؟ فأخبرتها أن أختها من أخذت منه الأشياء، تبرمت، وأكلتها الغيرة، والحيرة أيضًا.

مرت أيام كثيرة لم يأتي فيها لمنزلهم، ولكن لم يزدها ذلك إلا شوقًا، وتعلقًا وحنينًا، فكرت في حيلة تراه بها، كتبت ورقة كبيرة بأشياء تريدها، وأعطتها لأبيها فأخبرها أنَّه سيرسل لها ما طلبت

بعد قليل، شعرت بانتصار فسيحدث ما أرادته تمامًا، وقبل أن يخرج العم سالم سمعته ينادي على أختها جميلة، ويسألها إن كانت تريد شيئًا هي الأخرى فقالت له أنَّها تريد كتابًا تحتاجه في الجامعة، وكتبت له اسم الكتاب في ورقة.

وقفت ليلى في الشرفة تترقب، وتتمنى أن يكون هو من سيحضر الأشياء، وبعد كثير من الانتظار رأته بالفعل يحمل حقائب في يده، ويخرج من المصنع فانتفضت من مكانها، وأسرعت الخطى لتقترب من الباب حتى لا تسبقها أختها، وتفتح، ويضيع كل شيء هباءً، دق جرس الباب ففتحت بسرعة، ولهفة:

- صباحك سعيد يا آنسة.
- صباحك أسعد يا أفندي، صحيح أنا لا أعرف اسمك حتى الآن.
- علي
- سعيدة يا علي أفندي.
- تفضلي، ومد لها الحقائب التي في يده، أخذتها، وهي تنظر في عينيه لا فيما تفعله.
- شكرا كثيراً لك يا علي أفندي.

لاحظت توتره كثيراً، وكأنَّه يريد شيئًا فسألته:

- هل هناك شيء؟
- ها لا، أقصد يعني نعم، الآنسة جميلة هنا؟
- نعم!! وماذا تريد من الآنسة جميلة؟!

قالت جملتها بعد أن تحولت ملامحها من اللطف، واللين إلى الغضب، والحنق.

- كنت أريد أن أعطيها شيئًا يخصها.

- وما المانع إن أعطيتني إياه، وأنا أعطيه لها، أم أنني سأسرقه فتريد أن تعطيه لها يدا في يد؟؟

- لا عفوا يا آنسة أنا لا أقصد هذا.

- ما هذا الشيء الذي يخصها؟

تردد قليلًا ثم مد يده لها:

- هذا الكتاب، أخبرني العم سالم أنَّه خاص بالآنسة جميلة...

لم يكن أكمل جملته فخطفت الكتاب من يده بعنف.

- حسنًا، سأعطيه لها، شكرًا لك.

أغلقت الباب، ودخلت غرفتها تجر أذيال الخيبة، ودمعة حزن طفت في عينيها، رمت ما في يدها على السرير بعنف فسقط الكتاب الخاص بجميلة على الأرض فلم تعيره اهتمام، وجلست صامتة عدة دقائق، حتى غلبها النعاس فنامت مكانها بعض الوقت. أيقظها آذان المغرب فأدركت أنها نامت كثيرًا، قامت من سريرها متجهة للخارج، فتعثرت قدمها بشيء على الأرض، كان الكتاب الذي سقط منها قبل أن تنام، انحنت لتلتقطه فسقطت منه ورقة بيضاء مطوية، تعجبت، وتركت الكتاب لترى ما في الورقة، فتحتها لتقرأ:

عجيب أنني فتنت بك بتلك السرعة، عجيب أنني غرقت في هاتين العينين الطفوليتين، وتلك الابتسامة الخجولة التي تذيب الثلج وتصهر الحديد، وتلك النظرة في عينيك التي تكبل الفؤاد أسيرًا بلحظها الذباح الذي يفتك بقلبي ويقطعه إِرْبًا، صوتك الرقيق كألحان لم أسمع لها مثيل من قبل، يتهادى في مسامعي برقة فيتسلل لأوردتي فيروي ظمأي وحاجتي، فتطيب نفسي. باختصار أنتِ لست كغيرك، ولا مثيل لك، فلم تر عيناي حسنًا كهذا، ولم يرتبك قلبي هكذا لأنثى من قبل، أشعر أنك تبادليني نفس المشاعر، ولو كان كذلك فيا سعدي وهنائي بك، إن كان فأخبريني بأي طريقة كانت، وأخيرًا أخبرك بكل صدق بأنني أحبك.

كانت تقرأ، وعيناها تلمع بشدة، قلبها يكاد يخرج من صدرها من شدة الفرح، وابتسامتها واسعة على ثغرها حتى وصلت لنهاية الورقة لتقرأ آخر كلمات:

إليك خالص حبي، ووفائي يا أجمل جميلة رأتها عيناي، فأنتي اسم على مسمى فعلًا، اسمك جميلة، وأنتِ جميلة حقًا.

تصلبت دمائها، واختفت ابتسامتها وظهر ووجها كأنَّه جلمود صخر ملتهب كالسعير، اتسعت عيناها، ووقفت ثمَّ ظلت تسير جيئة، وذهابًا في الغرفة ممسكة بالورقة تقرأ آخر كلمات، وتكررها كثيرًا وكأنَّها تقنع نفسها بأنَّه حلم، تعيد القراءة حتى تتأكد من وجودهم بالفعل، ثم تحاول أن ترى اسم ليلى مكتوب بدلًا من

جميلة، ولكن دون فائدة، فالحقيقة لا مفر منها.

هل كان يحبها هي كل هذا الوقت؟ هل كان يأتي هنا من أجلها هي ليس من أجلي؟، وأنا!!! ماذا عني؟ ماذا عن قلبي وحبي وعشقي! هل سيتزوجها؟؟ آه يا قلبي، رباه ما هذا الألم!، ما هذا الشعور يا الله!، أشعر بنيران ملتهبة تزحف في دمائي، أشعر بها تحرق قلبي فينكمش، ويتآكل، أشعر بكل ما بداخلي يحترق.

كانت تحدث نفسها بصوت مسموع، انهارت على الأرض دون حراك فقط دمعاتها تنهمر كشلال انفجر، وأناتها تخرج بصوت ضعيف، شعرت بأن الكون ضاق فجأة، ويضغط عليها فلا تستطيع التنفس، فالصدمة كانت كجبل هوى عليها بكل ثقله. انتظرت حلول الليل، وهدوء الطرقات وانتهاء ضجيج النهار، وخرجت في شرفتها تحاول غسل آلامها بهواء الشتاء البارد، سمعت صوت عبد الحليم يخرج من الراديو الموجود في دكان الخردوات الذي يمتلكه عم سعيد العجوز الذي يسهر في دكانه يستمع لأغاني عبد الحليم الذي سمعته تلك المرة يقول:

جبار

في رقته جبار.. في قسوته جبار

خدعتني ضحكته وخانتني دمعته

وماكنتش أعرف قبل النهارده

إن العيون دي تعرف تخون بالشكل ده

عرفته قد ما عرفته ولا عرفتوش
وشوفته قد ما شوفته ولا فهمتوش
يا معلمني الحب و يا ريتني يا ريتني ما اتعلمته..

وكأن تلك الأغنية كانت بالقصد لتسمعها كأنها تحكي عما بداخلها، وتصف مشاعرها، فبكت من كلماتها، وزادت آلامها أكثر فأكثر. كانت قد قطعت الورقة وأخفتها كي لا تراها أختها، وظنت أن الأمر سينتهي هكذا، ولكن خاب ظنها فلم يكن الأمر سهلًا هكذا؛ فسمعت والدها يقول لأمها أن لديهم ضيوف اليوم من أجل جميلة، فتعجبت الأم، وقالت له هل ستزوج الصغيرة قبل الكبيرة! فأجابها بأن تلك الأمور نصيب، وقدر، ولا علاقة لها بالعمر. شعرت بصهريج ماء مثلج انصب فوقها من الصدمة، فماذا ستفعل؟ فما بيدها حيلة، ولن تستطيع فعل شيء، ولكن مهلًا، لماذا تريد أن تفعل شيئًا، وهو نفسه الذي لا يريدها هي! ولا يحبها هي. حدث كل شيء بسرعة كبيرة، جاء لمنزلهم، وخطب جميلته التي وافقت سريعًا، وكأنَّها كانت تحبه في الخفاء، وتم تحديد موعد العرس أيضًا، قلوب الجميع سعيدة فرحة إلا قلبها هي كان في مأتم، وحزن، وأنين، كانت تريد أن تفرح لأختها، ولكنَّها غير قادرة، ورغم ذلك لم يلحظ أحد ما بها فالجميع مشغولون مع العروس، ولا يهمهم سوى عيش لحظات الفرح دون تفويت لحظة واحدة. كانت في صراع مع الزمن، لا تريد عيش تلك اللحظات، لا تريد

أن ترى من أحبت يتزوج بغيرها، ومن؟ أختها! ولكن لا سبيل سوى الاستسلام. حان موعد العرس، وكان كل شيء يسير على ما يرام حتى النهاية، إن كان الأمر بيدها فهي لا تريد أن تحضر هذا العرس، فكرت في الذهاب إليه، والاعتراف بحبها، ولكن ربما انعكست النتائج، وسينفضح أمرها للجميع، مر العرس بسلام بالنسبة للجميع إلا هي، كانت تشعر أنَّها في حرب، والجيشان يضربان فيها فقط، ضربة سيف من هنا، وضربة خنجر من هنا ورمية سهم من هنا، كانت تئن بصمت، تحاول جاهدة أن تبتسم، لا تستطيع رؤية المشهد، فهي لم تكن تعبث، بل أحبته بصدق، بكل ما تملك من مشاعر، لم تتخيل يومًا أن كل هذا سيضيع هباءً. انتهى العرس، والكل عاد إلى منزله معبئًا بالفرح وهي كما تعلمون بماذا كانت معبأة من الداخل، ولا داعي لسرد ما حدث معها تلك الليلة فجميعنا نعلم ما المشاعر، واللحظات السيئة التي ستعيشها في غرفتها بمفردها الليلة.

مرت الأيام، واعتقدت أن تلك الأزمة ستمر، وتزول وستتعايش بشكل طبيعي، وتتقبل الأمور كما هي، ولكن كان يحدث العكس، كان الكره بداخلها يزيد، ويكبر كل يوم عن سابقه، كانت الغيرة تأكلها أكلًا كلما رأتهما سويًّا، كلما رأت السعادة في أعينهما، كلما لمست الحب يولد بينهما، ويكبر، ويصبح قوة لا تهزم، استسلمت لكل مشاعر الكراهية تلك، تركت نفسها تتحول من محبة عاشقة

لجبارة كارهة حاقدة، وربما مجرمة!. أخبرها أبوها بأنَّه سيأخذ والدتها ليعتمروا سويًّا، سيغيبون خمسة عشر يومًا تقريبًا، وعليها أن تعتني بنفسها جيدًا، وأختها ستأتي لتبيت معها ليلًا في تلك الأيام، وبالفعل سافروا لأداء العمرة، وبقيت وحدها في المنزل أول ليلة، ثمَّ الثانية جاءت أختها من أول الصباح لتؤنس وحدتها، وكعادة الأخوات يحببن الثرثرة مع بعضهن البعض، فراحت جميلة تقص على ليلى كم هي سعيدة مع زوجها، وكم يحبها وكم وكم وكم، حتى هبت ليلى واقفة في غضب لم تستطع إخفاؤه، وأخبرتها أن تصمت فهي لا تريد سماع حكايات سعادتها مع زوجها، وتركت جميلة في تعجب ودهشة من كلامها وأسلوبها، فظنت جميلة أنَّها حزينة بسبب سفر أبيها وأمها، فالتمست لها العذر ولم تعقب. الليلة الثالثة أخبرتها جميلة بأن زوجها سيأتي في المساء؛ ليجلسوا معا كنوع من التسلية، وبالفعل جاء، كانت تحاول إغماض عينيها عنهما لكن لا تستطيع، تحاول ألا تسمع كلماتهم، وألا ترى نظراتهم ولكنَّهما أمامها فلا مفر، الغيرة تفتك بها، ربما تحضر سكينًا وتقتلهما الآن سويا لتبرد النيران بداخلها وتهدأ، ظلت صامتة طوال الوقت، يحاولان الحديث معها، ولكنَّها لا تجيب، قامت جميلة بتشغيل الجرامافون فظهر صوت فيروز مما جعل ليلى تتوتر، فقد امتنعت عن سماع فيروز منذ أن علمت الحقيقة، فقبل ذلك كانت تسمعها لتهيم به عشقًا، وتتخيل

مستقبلها معه، انتهت الموسيقى ليملأ صوت جارة القمر المكان بكلمات كانت كالملح على الجرح بالنسبة إلى ليلى، فغنت فيروز:
أنا لحبيبي وحبيبي إلي.. يا عصفورة بيضا لا بقى تزعلي
لا يعتب حدا ولا يزعل حدا.. أنا لحبيبي وحبيبي إلي.
كانت ليلى، وزوجها يرددان كلمات الأغنية مع فيروز في حب شديد وليلى تنظر إليهما في حزن، مفطور قلبها، تحدث نفسها بأنَّك حبيبي أنا لا حبيبها هي ولكنك لم تصبح لي وأصبحت لها، ما زالت تنظر إليهما بدموع مختفية في قلبها، نهضت من مكانها متجهة لغرفتها بحجة صداع أصابها، وبعد قليل من الوقت سمعته يقول لزوجته أنَّه سيرحل، وهي تخبره بأن يعتني بنفسه جيدا، انتظرت بعض الوقت لتتأكد من أنه رحل لتخرج من غرفتها فهي لا تريد رؤيته، أرهفت السمع فلم تسمع لو صوتًا فتأكدت من أنَّه رحل، حملت كوب الشاي الذي كانت قد أعدته قبل أن تدخل غرفتها، وخرجت لتجلس في الشرفة، ولكن تجمدت مكانها عندما وجدته لم يرحل بعد، وما زال عند الباب لم يخرج، كان يقبلها بنهم، ثار البركان بداخلها، فرمت الكوب من يدها بكل ما أوتيت من قوة؛ فانكسر محدثًا صوتًا جعلهما ينتفضان في فزع، توترت جميلة، وهي تنظر لأختها، أمَّا هو فخرج مسرعًا. لم تهدأ ليلى بعد وعيناها كجمرتين من لهب:
- ما هذا الذي تفعلاه في وسط منزلي؟ ألا يوجد ذوق! ألا تعرفون

شيئًا عن الاحترام؟

- أنا آسفة حبيبتي، أنا أعترف بأنني أخطأت، ولكنه كان يودعني قبل أن يرحل فحسب، ولكني أعتذر لك حقًا، لا تغضبي أنا آسفة.

تركتها ليلى، ودخلت غرفتها، لم تبك تلك المرة، وإنَّمَا شعرت بمشاعر مختلفة تمامًا عن التي كانت تشعر بها حينما تغار منهما، فتلك المرة يسود قلبها كره جارف وحقد كبير، هناك شيء ما يهمس في أذنها يزيدها غضبًا على غضب. لم تنم تلك الليلة، فذاك المشهد اللعين الذي رأته لا يفارق خيالها، مما يزيدها غضبًا أكثر فأكثر.

اليوم التالي قامت مبكرًا، ودخلت المطبخ لتتناسى الأمر، قامت بتحضير الطعام، دخلت جميلة المطبخ فانبهرت مما أعدته ليلى من أصناف كثيرة شهية، فاحتضنتها بحب:

- أحبك يا ليلى، أعددت كل الأشياء التي أحبها، سلمت يداك.

ابتسمت ليلى ابتسامة مقتضبة ولم تر ، فحزنت جميلة:

- ما زلت غاضبة؟

- لا لم أعد غاضبة، فأنتي اعتذرتي، وانتهى كل شيء.

- حقًا! يعني نسيتي الأمر، ولست غاضبة مني ولا منه؟

- نعم، ولتتأكدي أخبريه بأن يأتي اليوم ليتناول غداءه معنا، فالطعام كثير ولن نأكله وحدنا أنا وأنتِ.

- حسنًا يا حبيبتي أحبك جدًا.

حان وقت الغداء، وجاء هو، وجلسوا جميعًا على السفرة يأكلون،

وهي تنظر إليهما وتبتسم، تراقبه، وهو يطعم جميلة في فمها، لم تغضب ولم تغار ولم تشعر بأي شيء، فقط تنظر إليهما وتبتسم. يأكلون بشراهة ويمدحون في طعامها الشهي، مرت خمسة عشر دقيقة، ثم توقفت جميلة عن الطعام، فسألها ما بك؟ فأخبرته بأن لا شيء هي فقط شبعت، مرت ثوان أخرى، وبدأت ملامح جميلة تتغير وتدل على أنَّها ليست بخير، عادت بظهرها للوراء وأصدرت بعض الأنات؛ ففزع هو وأمسك يدها، أمَّا ليلى فلم تتحرك من مكانها وما زالت تبتسم في صمت. زاد أنين جميلة وتحول لصرخات محملة بالألم، ثمَّ سقطت من على المقعد الذي كانت تجلس عليه، وهي تتلوى أرضًا وتصرخ، قام هو من مقعده ليحملها، ولكن اختل توازنه وكاد أن يسقط، ولكنه تماسك، انحنى ليحملها فرأى وجه جميلة الذي تورم قليلًا وأصبح لونه أحمرًا كالدماء ففزع، وكاد يقوم ليطلب إسعافًا ولكن بادره ألم شديد في معدته هو الآخر؛ فضغط على بطنه، وشعر بدوار ثم زاد الألم كثيرًا فسقط أرضًا بجوار زوجته، وأصبح يتلوى مثلها، وهنا قامت ليلى أخيرًا من مقعدها، وسارت بهدوء نحوهما وما زالت تبتسم، نظرت إليهما، وقهقهت بشدة وتعالت ضحكاتها، فنظرت لها جميلة بألم، وتحدثت بصوت مبحوح:

- ماذا فعلتي؟

-أهاهاها ماذا فعلت؟ أنا لم أفعل شيئًا حبيبتي، لم أفعل شيئًا

سوى أنني استعدت حقي، انتقمت لقلبي. لم تتعجب جميلة: كنت أعرف أنَّك تحبينه، ولكنه أحبني أنا.
صدمت ليلى من تلك الجملة:
- ماذا ؟ كنتي تعلمين أنني أحبه!!
- نعم كنت أعلم، ولكنك لا تملكين أي حق لأنَّه لم يحبك .
زاد غضب ليلى، وابتسمت مرة أخرى عندما وجدتهم يصرخون من الألم، مالت عليهما، وما زالت تضحك كالمجنونة وتنظر في أعينهما وتضحك، حتى هدأ كل شيء، وسكتت أناتهم وتوقفت أنفاسهم، فتوقفت هي الأخرى عن الضحك، واقتربت منهما تتأمل ملامحهما الصامتة. حينما نظرت في عينيه المفتوحتين، شعرت بوخزة في قلبها، رغم كل هذا إلا أنها ما زالت تحبه، فحدثته:
لم أقتلك إلا لأنني أحببتك بصدق، لمست وجهه بيدها، وكأنَّها تحقق أمنية طالما حلمت بها كثيرًا، ثم توجهت لأختها ومسحت على شعرها ثم بكت واحتضنتها:
أنا لم أقتلك، لم أقتل أختي الصغيرة فأنا أحبك، بل قتلت من سرقت حلمي، وأحرقت قلبي، ثمَّ تذكرت كل شيء: كلمات جميلة بأنَّها كانت تعرف بأنَّها تحبه، ولم تتراجع عن الزواج منه بالرغم من ذلك، وكلمات العشق التي أرسلها لها في الورقة، وكانت تظن أنَّه كتبها لها هي، ولكن وجدت اسم جميلة في النهاية، تذكرت كل الآلام التي تذوقتها، فتصلبت ملامحها مرة أخرى، وتركت

رأس جميلة يسقط من حضنها على الأرض، وقامت لتقف أمامها، وانفجرت في الضحك مجددًا، كان ضحكًا ممزوجًا بالدموع، دارت في الشقة كلها تضحك، وتترنح كالمخمورة. تم القبض على ليلى ولكن لم تحاكم، فثبت أنها تعاني من أزمة نفسية لا يعرفون هل كانت مريضة قبل الجريمة، أم أنَّها جنت بعدما قتلت أختها وزوجها، ولكن في كل الحالات يجب أن تعالج في مصحة نفسية. بقيت فيها ثلاث سنوات، لا تتكلم ولا تنطق حرفًا واحدًا، وذات ليلة نسيت إحدى الممرضات نافذة الغرفة مفتوحة، وسمعت ليلى صوت فيروز يأتي من مكان ما لا تعلمه، كانت تقول:

يا حبيبي شو نفع البكي.. شو إلو معنى بعد الحكي..

فقامت من سريرها بحثا عن الصوت، والدموع تنهمر من عينيها بغزارة، تذكرت حبيبها، وتذكرت أختها فاشتاقت لهما لأول مرة، وتذكرت عندما كانت تراهم معًا يعيشان في حب فعادت لها الغيرة، فتحت الشرفة ودخلتها، رأت القمر مكتملًا في السماء والأمطار تنهمر، وما زال صوت فيروز يرنو في أذنها، نظرت للأسفل فرأت الشارع الذي كانت تسكن فيه بكل ملامحه، فنظرت خلفها لتتأكد من أنَّها ليست في المصحة، وأنَّ هذه شرفة غرفتها القديمة، ولكن وجدت خلفها جدارا لا تعلم من أين أتى، فأدركت أنَّها سجنت في تلك الشرفة، نظرت لأسفل فرأت والدها يجلس أمام مصنعه، ورأت العم سعيد العجوز يجلس في محل الخردوات

خاصته، ورأت حبيبها في الأسفل ، فابتسمت، كان يحمل حقائب في يده فعلمت أنَّه سيأتي لمنزلهم الآن ليعطيهم الحقائب، ولكنَّها تذكرت ذاك الجدار خلفها فلن تستطيع فتح الباب لحبيبها إذا، نظرت خلفها ثانية لعلها تجد مخرجًا في هذا الجدار، ولكنَّها لم تجد الجدار نفسه، وجدت باب الشرفة الذي يدخلها إلى غرفتها في المصحة، فانزعجت وعادت للشرفة مجددًا ونظرت منها فلم تجد الشارع، ولا المصنع ولا حبيبها!، لم تجد سوى طريق سيارات، ومكان لا تعرفه أبدًا، بكت بشدة، فهي تريد العودة للمنزل، تريد حياتها السابقة، حتى وإن لم يكن حبيبها لها، سترضى بالأمر، ولكنها تريد أن تراه حيًّا، تريد أن ترى أختها مجددًا، ولكن كيف!. مر بذهنها مشهدهما، وهما يلتويان في الأرض في ذاك اليوم، تذكرتهم وهم يصرخون قبل أن تتوقف أنفاسهم ويفارقون الحياة، فانهارت محاولة إبعاد الصورة من عينيها، نظرت ليديها فوجدتها مغطاة بالدماء فصرخت وانهارت. وضعت قدميها على سور الشرفة لتقف على حافتها، ما زال المطر ينهمر، وهناك برق يضرب السماء، وصوت الرعد يهز جسدها المبلل من المطر، ابتسمت في هدوء، وصمت لتترك جسدها يهوى، ويسقط من الطابق الثامن من المصحة لتنتهي قصتها إلى الأبد، فقد وضعت نقطة النهاية بيديها.

تمت

ذنب بلا إثم!

لم يكن الفقر عيبًا يومًا ما، لم يكن ذنبًا، ولا إثمًا، لم يكن جريمة ترتكب! الفقر في بدايته قدر، وربما إلزام، ولكن العيب والجرم حقا؛ أن يبقى المرء فقيرًا طوال حياته، أن يظل قابعًا في المياه الراكدة، دون أن يسبح حتى يصل إلى مياه النهر العذبة، فإن حاول المسير حتى ولو ببطء؛ لن يخفق في الوصول إلى الآدمية، للحياة الصالحة للعيش فيها. يعتقد البعض أن جنس الرجال عمومًا، ذو مشاعر متبلدة، وقلوب لا تشعر، وكأنَّهم كائنات أتت من كوكب آخر، لا يشعرون، ولا يبكون، ولا يصرخون من الألم!

ولكن الواقع يقول أن البشر خلق واحد في النهاية، رغم اختلاف الجنس من أنثى وذكر، إلا أن جميعنا نملك قلوبا تشعر وأفئدة تنفطر، ودموع تنهمر، وخواطر تنكسر!

فالشعور، والحس ليس حكرًا على الإناث فقط.

عندما ماتت أم الولدين الصغيرين؛ عاصم ذو الستة عشر عامًا، وعزيز ذو العشرة أعوام، تركتهم لأبيهم المسن، رغم صغر سنهم

إلا أنهم كسروا، وانفطروا لفقد أمهم، الصدر الحنون الذي اعتادوه طيلة حياتهم، استيقظوا على فقدانه دون مقدمات، فدمعت الأعين وضعف الجسد ووهنت الروح، وتوقفت ضحكاتهم ولعبهم وتلاشت الفرحة من بيتهم عدة شهور.

خرج الثلاثة رجال إلى العمل، ولا يصح أن نسمي الوالد رجلًا دون الولدين، فجميعهم خرج للعمل، إذا ثلاثتهم أصبح في عداد الرجال، ركب عاصم، وعزيز على العربة الخشبية التي يجرها حصان هزيل ربما احتاج لمن يجره بدلًا من أن يجر هو العربة، ومشى الأب ممسكا بلجام الحصان حتى وصلوا إلى مشارف أرض زراعية، استقبلهم رجل راح يملئ عربتهم بثمار البطيخ، ثم أعطاه الأب نقوده، وانصرفوا بالعربة، ولكن تلك المرة ساروا جميعًا على أقدامهم، فلم يعد هناك متسع لهم على العربة، ولم يجرؤ أحد الابنين أن يشكو تعبًا، فمهما تورمت أقدامهما، وتقطعت أنفاسهما لا يشكون بحرف، خيم عليهم الصمت حتى وصلوا ساحة البيع والشراء، فوجه الأب كلامه لعاصم بصفته الكبير، بأن يفتح عينيه جيدًا وينتبه للعربة، ويحذر من اللصوص، ثم ترك الاثنين، عاصم يبيع ثمار البطيخ للمارة، وعزيز يلعب من حوله، ثم انصرف هو إلى عمله كأجير في أرض زراعية. ظل عاصم واقفا طيلة النهار ينادي لبضاعته، ويحاول جذب الناس للشراء منه، ويمدح في ثماره ويذكر حلاوتها فتشتهي بعض الأنفس لتذوقها فيشترون

منه، حتى نال منه التعب وضعف صوته، فجلس بجانب العربة يستريح قليلًا، رأى أخيه الصغير يتسلل من خلف العربة، ويخطف ثمرة بطيخ متوسطة الحجم كان عاصم قام بشقها لشخص، ولم يشترها، فجذبت شراهة الصغير إليها، فاستشاط عاصم عندما لمحه يحملها، ويركض بسرعة، فركض خلفه، وهو يسبه ويهدده، ويأمره بأن يعيدها إلى العربة، والصغير لا يبالي، وأثناء ركضهم على الطريق صدمت الصغير سيارة مسرعة فسقطت من يده ثمرة البطيخ، واختلط عصيرها الوردي بدماء الصغير السائلة من جسده الساكن على الطريق.

لم يدر عاصم بما يجري، ولم يفق من صدمته إلا ووالده ينهال على جسده بخرطوم من الجلد السميك، فيترك له آثارًا مؤلمة كلما تهاوى على جسده النحيل، ربما تشكل لوحة فنية مبعثرة الألوان من كثرة الضربات في كل اتجاه من جسده، فيتأوه، ويصرخ ولكن لا يزيد والده ذلك إلا عنفًا وغلا، كاد جسده يتشقق، وتنفجر الدماء منه، وبعد الكثير من الوقت، وبعدما تعب الأب نفسه من ضربه تركه وذهب، كان يعاقبه لأنَّه يرى أنَّه السبب فيما حدث لأخيه، استند على الجدران، وقام ببطء، لا يشعر بجسده من كثرة الآلام التي استوطنته، فخرج إلى الطريق يترنح بدماءه، وفي جيبه بعض النقود التي جمعها من بيعه في الصباح، أشار بيده للسيارات على الطريق فلم يجبه أحدًا حتى توقفت له مقطورة

نقل كبيرة، فركب بجانب السائق الذي كان طيب الخلق، فحزن لحاله، وأخذه في طريقه إلى القاهرة، أصبح في أحضان القاهرة الآن، في منطقة يعيش بها البسطاء من عامة الناس، وأصحاب الحرف، والمهن الصغيرة، فتنتشر ورشات الصناعات الصغيرة وصيانة السيارات، وعربات الفول والخضروات. لا يعرف أحدًا هناك، ولا يملك نقودا لاستئجار غرفة حتى، فظل طوال اليوم جالسا على حجر في الأرض، لا يعلم أي مصير قد كتب له، جاء إليه رجل، وسأله من يكون، فتلك أول مرة يراه هنا، فأخبره بأنَّه غريب عن هنا، ولا يعرف أي شيء، فعرض عليه الرجل أن يعمل لديه صبيًا في ورشة صيانة السيارات خاصته، فوافق قبل أن يكمل الرجل جملته، فهو في حاجة أي عمل يكسب منه نقودًا.

كان يعمل بإتقان، مطيعًا للرجل يسمع كلمته، ويلبي حاجته، فأحبه الرجل، وأعطاه الكثير من العلم في مجاله حتى أصبح الفتى ماهرًا في صيانة السيارات، مما جعل الرجل يسند إليه جل الأمور، ويكلفه بالكثير من الأمور، ودومًا كان يثبت جدارته.

أصبح شابًا الآن بعدما تخطى العشرين عامًا، وذات يوم رأى رجلا من بلدته يعرفه جيدًا، فهرع إليه، وسأله عن والده، فدهش الرجل عندما رآه، وأخبره أن أبوه حزينًا لغيابه لا يهدأ له بال، ولا تغمض له عين يبحث عنه في كل مكان، ويسأل عنه كل مار، فأخرج عاصم من جيبه مبلغًا جيدًا من النقود، وطلب من الرجل

أن يعطيهم لأبيه دون أن يخبره بمكانه، فسأله الرجل لماذا لا يعود لبلده ليطمئن قلب والده، فأخبره أنَّه لن يستطيع العودة بعد الذي حدث لأخيه بسببه، فصاح الرجل فيه، وأخبره أن أخيه ما زال حيا لم يمت في الحادث، دمعت عيناه، وانقض على الرجل فرحا يقبله، ويحتضنه بشدة ويحمد ربه، فالآن بإمكانه أن يعيش حرًا دون ذنب أخيه.

لم يكن خبر أخيه سببًا كافيا ليعود لبلدته، فقرر أن يبقى هنا في المكان الذي وجد فيه ذاته، وحقق فيه ما كان يحلم به، فقريبًا سيصبح مالكًا لورشة كالتي يعمل فيها، وسيصبح حرًا يملك الكثير من المال، وأمَّا والده، وأخيه فسيرسل لهم ما يكفيهم من المال كل فترة. أخبره الرجل ذات يوم أن ابنته ستعود من الإسكندرية اليوم وستعيش هنا، وهو سيذهب ليحضرها، وعليه أن يتولى أمر العمل كله خلال يوم غد حتى يعود هو، لم يكن الفتى يعلم أن لديه ابنة، ولكن لا يهم فهذا أمر لا يخصه، وبالفعل كان يعمل في الورشة، وكأنَّه صاحب المكان، حتى انتهى اليوم، وعرف أن الرجل قد عاد مع ابنته، ولكنه مرهق من السفر فلن يعمل اليوم، ففرح كثيرًا؛ لأنه حصل على وقت إضافي يمارس فيه دور صاحب المكان.

جاء رجلًا، وسأل عن الرجل صاحب الورشة، فأخبره عاصم بأنَّه لن يأتي اليوم، فأخرج الرجل من حقيبة صغيرة كان يحملها لفافة بيضاء، وأعطاها لعاصم، وقال له أعطها له عندما تراه، وأخبره

أنني من تركتها له، فسأله عاصم ما الذي بها، فقال له أنَّها نقود، قلق عاصم لأنَّه في خطر بوجود تلك النقود، ربما سرقها أحد منه، ويبدو أنَّه مبلغ كبيرًا، فقرر أن يذهب للرجل في بيته، ويسلمه النقود كي يجلس مرتاحًا هادئ البال، أغلق الورشة، وذهب إلى المنزل، صعد الدرج، وطرق الباب ففتحت له فتاة شابة في مثل عمره تقريبًا، كانت ترتدي ثوبًا فضفاضًا، وعلى رأسها حجاب صغير ارتدته بطريقة عشوائية فظهرت من تحته بعض خصلات شعرها البني، فتحت الباب منذ عشر ثوان تقريبًا، وعاصم ما زال صامتًا شاردًا يتأمل تلك التحفة الفنية المجسمة التي فتحت له الباب، حتى أنَّها نادته مرة، وسألته ماذا يريد مرة أخرى، وهو لا يسمع شيئًا، ولا ينتبه لشيء حتى نادته مرة أخرى بصوت أعلى تلك المرة، يا هذا ماذا تريد؟ فعاد من شروده متوترًا، واعتذر، ثم سألها عن أبيها الذي ظهر وجهه من خلف الفتاة، فتحدث إلى عاصم بغضب، وسأله لماذا ترك الورشة، وأتى إلى هنا، فمد عاصم يده بالنقود، وأخبره أنَّها سبب مجيئه لكن الرجل لم يهدأ، وعنفه بشدة.

ومنذ ذاك اليوم تغيرت بعض الأمور في حياة عاصم، فمن وقتها لا تغادر صورة تلك الجميلة مخيلته، ولا يغادر صوتها أذنه، وما زاد الأمر صعوبة أنَّها كانت تمر من أمامه في بعض الأحيان فيزيد ما به شجن، ومن الأمور الأخرى التي تغيرت، أن الرجل لم يعد سهلًا

لينا معه كما السابق، بل كان يعامله بشيء من العنف، والازدراء أحيانًا، فكانت تنشب بينهما الكثير من الجدالات يوميًا على غير العادة، وعاصم لم يتقبل تلك الأمور الجديدة فهو لا يقبل الإهانة على نفسه، فهو شاب صعيدي في النهاية، كرامته تأبى أن تخضع لأحد، خاصة أنَّه لم يفعل له شيئًا شيئًا، فلا يدري ما سر سوء المعاملة تلك، فلا يعقل أن تكون بسبب تلك الزيارة لمنزله؟! بداخله مشاعر مضطربة، متداخلة، فتلك الفتاة أربكته، وأربكت كل ما بداخله، فهو سعيد بذلك الشعور، ومنزعج لأنَّه يسيطر عليه، ويقتحم فكره أثناء عمله، ونومه وطوال يومه، حتى زيد الطين بَلة، فذات يوم كانت تلك الجميلة التي سحرته تسير أمام ورشة أبيها، ولكن لم يكن أبوها هناك، فقط عاصم كان يعمل، فدخلت هي وصعق عندما رآها أمامه، فألقت السلام في خجل وسألته عن أبيها، فرد بتلعثم أنَّه ذهب ليصلح سيارة تعطلت على الطريق، شكرته، وكادت أن ترحل فأوقفها، وسألها إن كانت تريد شيئا، فقالت أنَّها كانت تريد أن تخبره شيئًا، ولكنَّها ستأتي حينما يعود، كان يتمنى أن يقف الزمن هنا، أن تتعطل عقارب الساعات في الكون بأكمله، أن تبقى هنا، يتأملها ويسمع صوتها فقط، كانت تحمل في يدها أكياسا كثيرة، سقطت إحداها على الأرض؛ فأسرع، وحملها عنها ثم أخذ من يدها بقية ما فيها، وقال لها أنَّه سيوصل لها الأشياء بدلًا منها، فابتسمت بامتنان ومشت

أمامه، وصلًا إلى المنزل، وصعدا الدرج معا، وهو بداخله سعادة العالم بأسره، يحاول أن يلتهم اللحظات التهاما ليتذوق حلاوتها، فتحت هي باب شقتها ثم استدارت له لتأخذ الأكياس منه فقال أنَّه سيدخلهم لها، ولكنها رفضت، وأخبرته بأنَّه مشكور إلى هنا، فظل ينظر في عينيها، وكأنَّه يغترف من النظر إليها اغترافا ويخبئه في ذاكرته، فقطعت صمته كلماتها التي سرت في دمائه مسرى الحياة، فأخبرته أنَّها لم تر رجلًا شهمًا مثله منذ الكثير من الوقت، ابتسم لها فبادلته الابتسامة، وودعته، وأغلقت الباب. هبط الدرج ببطء كي يترك لخياله العنان أن يعيش اللحظة، والسعادة، وما أن وصل إلى باب المنزل، اصطدم وجها بوجه بصاحب العمل، ووالد الجميلة! فسقط قلبه في قدميه، وتسارعت أنفاسه، ليس لأنَّه فعل خطئًا، ولكن بسبب نظرات الرجل المشتعلة كجمر ملتهب، لم تمر ثانية أخرى حتى فاجئه الرجل بلكمة قوية في وجهه؛ فسقط أرضًا، فانهال عليه الرجل بعدة ركلات، ولكمات أسالت الدماء من أنفه، فصرخ فيه الرجل، ما الذي تفعله في منزلي؟ أيَّها الخائن الحقير، أتستغل غيابي؟؟

لم يفهم عاصم كلماته، ولم يستطع الرد، فتركه الرجل ملق على الأرض، وصعد لابنته يصرخ فيها، فقالت له بأن عاصم لم يفعل شيئًا سوى أنَّه ساعدها في حمل الأشياء إلى هنا، وعاتبت أبيها لأنه ضربه فلطمها على وجهها، وظل يصيح بصوت عال مع نفسه،

يسب الفتى، ويتوعد لابنته. لم يتحمل عاصم الأمر أكثر من ذلك، وراح يخطط للانفصال عن هذا المجنون، ويستقل بعمله الخاص، فهو الآن يملك من المهارة، والخبرة ما يكفيه لذلك، كما لديه زبائنه فلا قلق، وبالفعل استقل بورشة صغيرة، تكفي لدفع إيجار غرفته، وطعامه، مرت عدة أشهر، وذاك الشيء بداخله يكبر ويزيد لا يقل، إنَّه يحبها حقا، ويريدها من قلبه، ولكنَّه قلق من أبيها، فقد تغير معه تمامًا، وأصبح يكرهه بشدة فبالطبع لن يقبل أن يزوجه ابنته، بالإضافة إلى فقره فلن يقبل لها زوجًا إلا رجلا ثريًّا يليق بها، ولكنه يعلم أن الحب للمحاربين فقط، لا للجبناء المترددين، فإن كان يحبها سيخوض معاركًا من أجلها حتى، وإن كان مصيره أن يلقى مصرعه فسيكون سعيدًا بذلك مفتخرًا بحاله، لذلك قرر أن يذهب غدًا، ويطلب جميلته. ثار أبوها، وهاج، وماج، وطرده، فاعترضت الفتاة على موقف أبيها، وأخبرته بأنَّها موافقة، فهي تريد ذاك الرجل، فهي تراه مختلفًا عن غيره في كل شيء، فعنفها أبيها بشدة، وأخبرها أن ذلك لن يحدث أبدًا، كانت تراه في الطرقات فتنظر إليه بأعين حزينة دامعة، أمَّا هو فكان يحارب في كل سبيل، وسبيل، يبعث له رجلًا ذو مكانة مرة، ويرسل له أحد أقرباءه مرة، ويذهب هو إليه مرات، ومرات ومرات، غير مبال بطرده، ولا تهديده ولا أي شيء، فهو عازم على أمر ما، ولن يتوقف حتى يحصل عليه، وبعد عامين من العمل والكفاح

والمحاولات التي لم تتوقف طيلة العامين، فقد كان يذهب في الشهر الواحد ربما مرتين وثلاث، وذات محاولة من محاولاته، صرخ فيه الرجل، وقال له، أرهقتني! وطفح الكيل منك، ومنها، من أي شيء صنعت أنت؟ من أي شيء صنعت عزيمتك؟ ألم تمل! ألم تنس الأمر؟!! فرد عليه عاصم بهدوء، وثبات.

- من يحب لا يعرف التعب! لا يعرف الملل، ولا ينسى، أو يزهد في من يحب! وأنا أحببتها، وسأظل ما حييت أحارب من أجلها، صمت الرجل دقائق ثم قال له.

- إذا، هي لك؛ فلتفز بها بني، أنت أثبت لي أنَّك جدير بابنتي كما أثبت لي من قبل أنَّك جدير بإدارة عملي، لن أقف أمامكما ثانية، أنت لها، وهي لك، مبارك لكما.

أنهى عاصم حديثه مع ابنه الذي جلس يستمع لقصة أبيه منذ صغره حتى انتصاره، يستمع بعينين لامعتين، ويشعر بفخر؛ لأنه ابن هذا الرجل، فقال عاصم لابنه، أنا أقص عليك حكايتي، لتعلم أن البداية دومًا مؤلمة، وكلما عانيت فيها كلما حققت أكثر في النهاية، لن تجد الطريق مفروشا بالورود، وإن أحببت بصدق فلا تغمض لك عين حتى تفز بمن أحببت، وإن حاربت العالم كله، قف أمام العالم بقلب محارب مقاتل، لا بقلب أسير متخاذل.

تمت

حبات السكر المرة

البعض يرى أن المال ليس كل شيء، والبعض الآخر يرى أنه كل شيء! على كل حال، المال أحيانًا يصبح كل شيء!

تلك مقولة صهيب، الشاب الثلاثيني ذو البشرة السمراء، والجسد مفتول العضلات، مثله كغيره من أقرانه تخرج منذ سنوات، ولم يجد وظيفة تكفي لما يريد حتى الآن، تعلق قلبه بفتاة كانت زميلته في الجامعة، وعزم على الزواج منها، ولكن الأمر مضحكًا حقًا، إنَّه مجرد حلم لا يستطيع لمسه بيديه، فالزواج، والخطبة هنا تحتاج أن تكون مليارديرًا، أو أن تكون ورثت مقبرة فرعونية مليئة بالذهب، حينها فقط سيستطيع التكفل بتكاليف الزواج بسهولة. وكما أن هناك من يبحث عن أي شيء يفعله مقابل الحصول على المال، هناك أيضًا من يريد أن يدفع كل ما لديه من مال مقابل شيئًا واحدًا فقط، عائلة (فيروز) عائلة ثرية، يقيمون في أوروبًا، ليس لديهم أبناء سوى فيروز، صاحبة الخمس وعشرون

عاما، فقدت القدرة على النطق منذ أن مات خطيبها غرقا أمامها، ومنذ ذاك الحين لم يستطع جل الأطباء شفاءها، والجميع أجمع على أنَّه لا يوجد أي حل سوى أن يجدوا نسخة من خطيبها فحينها فقط ستكون فرصة شفاءها واقعية، وقد سعت عائلتها متعلقين بأمل المثل التقليدي: «يخلق من الشبه أربعين» فهم لا يريدون هؤلاء الأربعون، فقط يريدون شبيهًا واحدًا فقط بخطيب ابنتهم المتوفى.

حصل صهيب على فرصة عمل في إحدى الدول الأجنبية، كان الأمر مصيريًّا بالنسبة إليه، فطبيعة عمله هناك ليست جيدة، وليست ما كان يتمنى لنفسه، لكن راتبها كبير، وهذا ما يبحث عنه، ولكن هل يا ترى ستنتظر حبيبته كل تلك السنوات فوق ما انتظرته؟ وهل يا ترى سيظل هو على عهده يذكرها! وبعد الكثير من النقاشات حسم قراره وسافر، كان ينظف الصحون تارة، ويقدم المأكولات تارة، يعمل طوال اليوم، حتى حان يوم عطلته من العمل، فخرج يستكشف البلدة ويلف شوارعها، وبينما يسير ببطء يتأمل ما حوله، رأى رجلين يركضان نحوه، ويبدو أنَّهم عازمين على الإمساك به، هاله الموقف فراح يركض بكل سرعته، وكلما التفت خلفه يراهم ما زالوا يحاولون اللحاق به، حتى انقض عليه أحدهم وقيد ذراعيه فراح يقاوم، ويحاول الفرار، حتى تحدث أحدهم إليه: [Don›t worry - لا تخف]

فسألهم بالعربية: ماذا تريدون مني؟

- أنت عربي؟

أفلتوا ذراعه، واعتذروا له على إخافته، ثم عبر الرجلان عن سرورهما بعربيته وأكملوا حديثهم باللغة العربية، كان مندهشًا لا يفهم ما الذي يجري، وبعد دقائق ركب معهم سيارتهم. أخبره الرجل أن لديه ابنة مريضة، ولم يستطع جل الأطباء علاجها، وأنَّه مستعد أن يدفع ثروته بأكملها مقابل شفاء ابنته التي فقدت القدرة على النطق والحركة، حزن صهيب لحال الفتاة، ولكنَّه لم يفهم بعد ما المطلوب منه، فأخبره الرجل أنَّه الوحيد الذي بإمكانه مساعدتها، فإنَّه يشبه خطيبها جدًا، وعرض عليه أموالًا طائلة مقابل أن يذهب معه إلى ابنته كي تراه، وأخبره أنها بمثابة وظيفة سيمارسها، وما أن تتحسن ابنته يمكنه المغادرة، والتمتع بحريته كاملة، كان الأمر أشبه بحلم، فالمبلغ الذي عرض عليه يمكنه من أن يصبح ثريًّا لبقية عمره، ومقابل تلك المهمة البسيطة للغاية لن يحتاج إلى أي عمل، فأي فرصة ذهبية تلك التي سقطت عليه من السماء، كان يحدث نفسه في صمت حتى توقفت السيارة فجأة، أخبره الرجل أنهم وصلوا إلى المنزل، وسأله مجددًا عن قراره، لم يكن صهيب يحتاج أن يفكر فأجاب أنَّه موافق بالفعل، ترجلوا من السيارة فاتسعت عينا صهيب من روعة ما رآه، أمامه قصرًا كبيرا للغاية، وكأنَّه بنى على قطعة من الجنة، كانوا بالمساء،

والمنزل مضاء بأكمله مما زاده جمالا.

قضى ليلته في غرفة فاخرة في القصر، وفي الصباح أيقظوه، وأخبروه أن فيروز في حديقة القصر، وعليه أن يذهب الآن ليفعل ما جاء من أجله، توتر، وشعر ببحر من العرق يغرقه، فهو لا يعرف ما الذي سيفعله، ولا كيف ستكون ردة فعل الفتاة، أعطاه أبوها علبة صغيرة، وأخبره أن بها حبات من حلوى سكر النبات، فخطيب ابنته كان يحملها في جيبه دائمًا، ويعطي منها لابنته كلما رآها، ثم أعطاه عطرًا مميزًا كان يضعه دوما، فوضع صهيب علبة الحلوى في جيبه، ووضع من العطر على ملابسه، واستعدل لأمر، وصل الحديقة فرآها من ظهرها، تجلس على أرجوحة ثابتة، شعرها أسود طويل للغاية منسدل على ظهرها، تتطاير خصلاته بخفة كلما داعبته النسيم، ترتدي ثوبًا أزرقًا سماويًا طويلًا، مكشوف الذراعين، فشعر بأنَّه بصدد رؤية واحدة من الحور العين، فإن كان قد رأى كل هذا الحسن، وهي مستديره، فما الذي سيراه عندما يرى وجهها! اقترب بخطوات حذرة يملؤها الشغف، حتى وصل إليها، وأصبح واقفًا خلفها في صمت وتوتر، تحفزت حواسها، انتبهت أنفها لذاك العطر، حدثت نفسها في صمت: آه يا قلبي إن كان حلمك واقعًا، ولم يكن مجرد سراب، آه لو كان هو من خلفي الآن، أشعر بالحياة تسري في يده التي على كتفي الآن، أريد أن أشبع من شعور وجوده معي حتى لو لم أره بعيني، فيكفي قلبي

الممزق أن يستشعر وجوده، وأشم عطره الممزوج برائحته، عقلي يقودني أن أنظر علني أجده بالفعل واقفًا أمامي، وقلبي يجذبني للخلف مخافة ألا أجده فأخسر الحلم والحقيقة معًا، أغمضت عيناها فتهاوت بضع دمعات على وجنتها، رفعت يدها ببطء إلى أعلى ولمست كفه الساكن على كتفها، فخفق قلبها حينما لامست يدا من لحم ودم، فتسارعت نبضات قلبها وتسارعت معها عبراتها.

- يا حبيبي الغائب، اشتقت لك، إن كنت واقعًا فاترك يدك تعانق يدي، وإنت كنت حلمًا فأطل البقاء، أو خذني إلى عالمك.

لمْ يكنْ هو يسمع ما تقول لأنها كانت تحدث نفسها، توتر صهيب، وباتت يداه ترتعد كلما ضغطت عليها هي لتتحسسها، كانت عائلتها تراقب المشهد من قرب فأشار له والدها فتذكر صهيب علبة الحلوى التي في جيبه فأسرع، وأخرجها بيده الأخرى، وأخذ منها حبة، وقربها من فمها فتناولتها هي بأعين متسعة وأنفاس متسارعة، قلبتها في فمها ثم مضغتها، ومن ثم راحت تبكي وتضحك في آن واحد من هول فرحتها. تحرك صهيب ببطء وجلس أمامها على ركبتيه ممسكًا يدها، وما أن رأته وضعت يدها على وجهه تتحسس كل خلية فيه لتتأكد من أنَّه حي، ثم تناولت رأسه بين كفيها في حب، وتحدثت بصعوبة بنبرة خافتة متقطعة الصوت قليلا: أنت؟

ما أن سمعتها عائلتها تتحدث راحوا يعانقون بعضهم البعض ويبكون من الفرح، أمَّا صهيب فقد شعر بالانتصار، وحدث نفسه أنَّه لم يبذل أدنى مجهود، وجعلها تتحدث فكان يبتسم من نشوة الانتصار، ثم لفت انتباهه أن كل تخيلاته سقطت على الأرض، فهو لم ير ذاك الجمال الأخاذ الذي توقعه، مما جعله هذا متبرمًا في نفسه بعض الشيء، فقد وجدها فتاة عادية جدا، سمراء اللون، عيناها بنية، ملامحها عادية في نظره ليس كما توقع، عاد من شروده سريعًا ليجيبها مبتسما: نعم أنا

- أين كنت؟ الجميع هنا مصرون على أنَّك مت! أمَّا أنا فكنت أعرف أنَّك لم تمت، كنت أثق أنَّك ستعود، أعرف أنَّك لن تتركني وحدي هكذا، فأنت تخاف على الوحدة، لا ترضى لي بالألم، وها أنت عدت، اشتقت لك بحجم السماء.

لم يكن يفعل شيئًا سوى الابتسام، فهو ما زال متوترًا جدًا، ومتخوف من نطق حرف واحد، وكلما شعر بمأزق أخرج علبة الحلوى من جيبه وناولها واحدة، فكانت تفرح بشدة، وتتهلل أساريرها كلما أعطاها قطعة سكر، فتأكلها في لذة باستمتاع، ثم قالت: أتعرف، إنَّها أطيب حلوى تذوقتها في حياتي تلك التي آخذها من يدك، حبات السكر تلك لم أتناولها منذ غبت عني، فقدت حياتي بدونك، أنا لم أفقد القدرة على النطق، ولا على السير، وإنما فقدت الرغبة فيهما، وفي كل شيء وأنت لست هنا،

أتعرف ما الذي أريده، وبشدة الآن؟

- ماذا!

- أريد أن أعانقك، أن أخبئك في أضلعي، أن أترك كل خلية بداخلي ترحب بك، وبعودتك.

لم تترك له وقت للحديث فجذبته بين أحضانها في هدوء، أمَّا هو فالتزم الصمت، حدث نفسه: يا للهول ماذا لو رأتني حبيبتي الآن هكذا، سيجن جنونها، ستقتلني وتقتل تلك التي تحتضنني رغمًا عني، تخلص من يديها في رفق، وحدثها بابتسامة أن عليها رؤية عائلتها الآن، فهم مشتاقون للغاية أن يسمعوا صوتها تتحدث، فأمسكت يده كأنَّها تقيده كي لا يختفي مجددًا، وانتهت الليلة بسعادة عارمة في أرجاء القصر.

كان صهيب يراسل حبيبته بين الحين والآخر ولكن لم يخبرها شيئا عن فيروز مطلقًا، مضى على دخوله القصر أسبوعين، على مدارهما لم يفعل شيئًا سوى الجلوس مع فيروز، والتنزه معها، حتى عادت لطبيعتها، واستوطنت البسمة شفتاها، كان صهيب يشعر بالأسف لحالها، فعندما اقترب منها أكثر، وأصبح يلازمها طوال الوقت استكشف كل ثغراتها وشخصيتها، رآها بعين غير التي رأتها أول مرة، استشعر جمالها الفريد بالفعل ونقاء روحها ورقة مشاعرها، وأصبح يفعل الكثير، والكثير كي يحصل على ابتسامة من ابتساماتها الحلوة كحلاوة حبات السكر التي أصبح

يحبها هو الآخر، كانا يجلسان على ضفة النهر، فمالت برأسها على كتفه حتى راحت في النوم فنامت على قدمه، اضطر أن يبقى ثابتًا كي لا يوقظها، فوجد نفسه محملقًا فيها يتأمل قسمات وجهها، شعر أن هناك ملاك نائم على قدمه ليس إنسانًا، ملامحها بدت طفولية جدا وهي نائمة، وكلما تأملها شعر أنَّه يراها لأول مرة، كان يراها جميلة حقًا، لم يرها عادية كما رآها أول مرة، فتعجب من ذلك الأمر، وهي لم تلاحظ أنَّه غريب أبدًا، فملامحه كانت تشبه خطيبها بأدق التفاصيل، حتى صوته، أو ربما حتى لو لاحظت شيئًا كانت تتغاضى عنه لأنها سعيدة بوجوده، ولا تريد أن تشكك في وجوده بأي حال. كان هناك من يراقب من بعيد، بعين حاقدة، إنَّه شاب ذو صلة قرابة بفيروز، يقال أنَّه يحبها، وأنه كان سعيد بموت خطيبها، ويقال أنَّه طامع في ثروتها، ولا يريد أن يتزوجها رجلًا غريبًا فتضيع منه تلك الثروة، على كل حال فهو يكره صهيب بشدة، ويبحث عن أي طريقة يتخلص منه بها، فحصل على كل المعلومات التي تخصه، بلده التي جاء منها وحياته السابقة وحبيبته وعمله هنا قبل مجيئه القصر، وصور من بطاقة هويته التي تحمل اسمه وجواز سفره، فذهب إلى صهيب وحدثه بنبرة محذرة، وأخبره أنَّه سيعطيه ما يريد من مال مقابل أن يرحل من هنا ويبتعد عن فيروز، وإلا سيفضح أمره لها، فأخبره صهيب أن هذا ما سيحدث بالفعل، وأن والدها اتفق معه أن يرحل بعد

شفاء ابنته ويصبح حرًا لا علاقة له بها، فغضب الشاب أكثر وقال له أنَّها شفيت وعليه أن يرحل الآن قبل أن يندم على مجيئه هنا، وتركه ورحل. شعر صهيب بالخوف فهو في بلد غريب، وليس له ظهر يحتمي به، كما أنَّه أنهى مهمته ولا يوجد ما يبقيه هنا، صعد غرفته ووضع أغراضه في حقيبة السفر وعزم على الرحيل، ترك الحقيبة في الغرفة وخرج يبحث عن فيروز كي يخبرها أن لديه عمل سيسافر لأجله ثم يعود مجددا، بحث عنها ولم يجدها، فأخبروه أنَّها في حديقة الخيول، فذهب هناك ورآها بالفعل، كان يتجه نحوها لكنَّه توقف واختبأ يراقبها دون أن تراه، كانت تمرح مع حصانها الأسود وتداعبه، وهو يراقب كل حركة تقوم بها في إعجاب شديد، فهو لا يعرف لماذا يحب أن يتأملها هكذا، ولماذا يبتسم رغمًا عنه كلما رآها، تنحنح واقترب منها فلاحظت وجوده، فتهللت أساريرها وانقضت عليه تعانقه، فشاركها الأمر تلك المرة على غير عادته فدوما كان يخلص نفسه من ذراعيها، أمَّا هي فكانت تخبره أنَّها تستشعر الأمان كلما احتضنته، ففي تلك المرة راح يحتضنها هو الآخر بوجه حزين، كأنَّه يريد أن يأخذ منها ذكرى قبل أن يرحل، شدته خلفها ودعته إلى رحلة على ظهر حصانها، فلم يستطع الرفض، امتطى ظهر الحصان ليكون القائد ثم ساعدها على الركوب خلفه، فانطلق الحصان بسرعة البرق، لفت يديها حول خصره بقوة خشية السقوط، كانت هي

تتساقط منها الفرحة تساقطًا، أمَّا هو فاحتلته مشاعر غريبة لا يدري هويتها حقًا، يشعر بشيئًا ما كوخزة في صدره، حزن ممزوج بحبات سعادة وفرح، وشعور آخر لم يستطع تمييزه حتى الآن. أشارت له أن يتوقف هنا، فتوقف الحصان في مساحة خضراء واسعة بها شجرة واحدة، ولكنَّها كبيرة وضخمة جدًا، أسرعت فيروز، والتقطت حجرًا صغيرًا من الأرض، وهو يراقبها في صمت، ثم رآها تقذف الحجر على الشجرة وما هي إلا ثانية وامتلئ المكان بأكمله بفراشات ملونة ترفرف بأجنحتها في مشهد ساحر، كان صهيب مندهشًا سعيدًا بالمشهد إلا أنَّها جذبت عيناه أكثر من الفراشات، ظل يراقبها، وهي تتراقص في خفة وتحرك ذراعيها كأنَّهم أجنحة تقلد الفراشات، كانت تشبههم حقًا، ظل يراقبها بعين أصبحت لامعة بعض الشيء حتى رآها مقبلة نحوه، وتسأله ما به، ظل صامتًا بضع ثوانٍ ينظر لها ثم قال:

- أحبك.

- كنت حزينة جدًا لأنَّك لم تقلها لي منذ عدت، فظننت أنَّك لم تعد تحبني، أنا أيضًا أحبك، أحبك أكثر من أي شيء!

لم يجبها، ولكنه حدث نفسه: لا الأمر لم يكن هكذا، فأنا لم أكن أحبك منذ البداية ولكن! ولكن كل ما أعرفه أنني الآن أحبك.

لم يخبرها حتى بأنَّه سيسافر لأنه شعر أنَّه غير مستعد للمغادرة الآن، عاد إلى غرفته، يشعر أن رأسه جبل ثقيل، ولأول مرة منذ

أسبوعين يفكر بحبيبته التي لم يعد يذكرها كثيراً، فكر إن مكث هنا طويلًا هل ستنتظر، هل يخبرها أنَّه أحب غيرها! هل سيتركها، أم سيعود لها!

قرر صهيب أن يبقى هنا، بجوارها، وأنَّه إن أخبرها بالحقيقة فلا يظن أنَّها ستبتعد عنه، ففي النهاية هي تحبه، أرسلت إليه فيروز وأخبرته أنَّهم سيخرجون في نزهة قرب النهر، فاستعد وكان في تلك المرة كأنَّه عاشقًا يستعد لموعد غرامي ليس ككل مرة، حان الوقت فخرج واستقبلها بابتسامة صادقة، وصلوا إلى ضفة النهر فجلسا ينظران لبعضهما، شعر أنَّها تريد قول شيئًا، ولكنها لم تفعل، رآها تخرج شيئًا من حقيبتها، كانت علبة حلوى، ناولته بضعة حبات من السكر فتناولها وقبل أن يأكلها سألها لماذا لونها غريب هكذا، فقالت أنَّها نوع جديد، فوضعهم في فمه وسرعان ما تغيرت ملامحه، وأسرع يشرب الكثير من الماء، لم تعقب هي، فسألها ما هذا؟ فقالت:

- أشعرت بمرارتها؟

- نعم إنَّها مرة جدا!

- صهيب.

اتسعت عيناه وأصفر لونه وكاد ينصهر في مكانه، لم يجب، فأكملت.

- أشعرت بمرارة حبات السكر في فمك؟ إنَّه كذلك ما أشعر به

الآن، أشعر بمرارة في حلقي، غصة في قلبي، أشعر بك بداخلي كما شعرت أنت بمرارة حبات السكر تلك في فمك الآن!
مازال صامتًا، ينظر إليها فقط.
- لماذا كذبت علي؟! من أجل المال صحيح! لماذا لم تخبرني أن لديك حبيبة!! أتظن أنني لم أكن أعرف أنَّك لست خطيبي؟ لا، كنت أعرف منذ أول يوم أنَّك لست هو، فقلبي لا يخطيء فيه أبدًا، لكني لم أشعر أنَّك غريب، أحببتك أنت وأنا أعرف أنَّك أنت! ولكني لم أكن أعلم أنَّك تحب فتاة أخرى، لم أعرف أنَّك خائن!
- أرجوك دعيني أتحدث، أنا لست خائن أنا أحببتك بصدق، و...
قاطعته:
- أعلم ولذلك أنت خائن، تراني سأقبل أن يتمزق قلب امرأة أخرى بسببي! تراني سأقبل أن يتذوق إنسان مرارة فقد محبوبه كما تذوقتها أنا من قبل!
- .....
- لماذا تلك الدموع في عينيك الآن؟ هل لأن أمرك قد كشف ولن تحصل على أموالك، أم لماذا؟؟
- أقسم لك أنا لا أريد مالًا ولا غيره، أنا لا أريد سواك، حبيبتي تلك ستتزوج عندما تجدني لم أعد.
- لا يهم ذلك، فأنا لا أريدك بعد الآن، عد إليها فإن قبلت بك فأنت من حقها، وإن لم تقبل بك فليس لك مكان هنا.

تركته وقلبها يتمزق إِرْبًا، إنَّها المرة الثانية التي تشعر فيها بمرارة الفراق تلك، إنَّه نفس ذاك الألم، ونفس تلك الوخزة، أمَّا هو فانهمرت دموعه كشلال ثائر، ومذاق كلماتها في جوفه أكثر مرارة من مرارة حبات السكر المرة التي أكلها منذ قليل، ظل ينظر إليها، وهي تبتعد، وكلما ابتعدت عن رؤيته تزداد دموعه، عاد إلى بلده بعدما فشلت كل محاولاته أن يراها، عاد ليدفع فاتورة أخرى، فاتورة خيانته بالمثل، تزوجت حبيبته ولم تنتظر عودته، فكأن قلبها أخبرها أنَّه لم يعد مخلصا لها، أنَّه أحب غيرها.

فصحيح أنَّه قد حصل على الكثير من المال، ولكنه خسر الاثنتين!

تمت

ماتت، ولكن حية بداخلي!

لم يدر كم من الوقت قد فات لكنَّه أدرك أن الليل قد اقترب حينما رأى الشمس تلملم آخر خيوطها من السماء معلنة غروبها قريبًا، كان يستند برأسه على شاهد القبر الذي يجلس بجانبه، عيناه ذابلتان بعد أن تحول خضارهما إلى لون قاتم، وكأن هناك شيء ما قد اختلط بهما يبدو أنَّه الحزن، وكأن هناك ضباب ملئ عينيه، فظهرت كمدينة زحفت عليها جيوش الألم واحتلتها فاستحالت أشجارها إلى رماد وخضارها إلى سواد، وملابسه تحولت إلى اللون الرمادي من أثر التراب الذي يحيط به، نهض ليقف على قدميه بجسد ضعيف هزيل، قطع الصمت الذي كان يخيم على المكان صوت حارس المدافن قائلا : أتريد شيئًا آخر يا بك، أم أنك ستذهب؟ فأجابه بنظرة صامتة فهمها الرجل، وكأنَّه اعتاد عليها فذهب سريعا ينثر الورود التي كان يحملها في يديه على القبر،

تقدم الرجل، وترك المكان وتوجه إلى سيارته فلمح الحارس يقف أمام زجاج السيارة ويبتسم ابتسامة متوترة ففهم الرجل بدوره وأخرج من محفظته ورقة من فئة المئة جنيه، وأعطاها للرجل الذي راح فمه يمطر بالدعوات فأغلق الرجل زجاج السيارة حتى يتخلص من صوت ذلك الرجل الذي يزعجه.

انطلق بسيارته بسرعة البرق، وكأنَّه لا يهاب الموت، في شارع رئيسي يكسوه الصمت توقفت سيارته السوداء كلون ما بداخله من حياة فترجل منها، وخطا بضع خطوات حتى وصل إلى البناية التي يسكن فيها، ثم دخل المصعد الذى وصل به إلى شقته في الطابق الخامس، كان الجو هادئًا حتى صدر صوت صرير باب شقته يفتح فأغلق بابه، وارتمى على أريكة كانت قريبة منه، وبعد ثوان زحف عليه النعاس فاستسلم له وغط في نوم عميق دون حتى أن يخلع حذائه، أرسلت الشمس شعاعًا ذهبيًا يداعب عيناه ففتحهما ليجد النهار قد جاء، وهو مازال على هيئته المزرية التي جاء بها أمس، فنهض وتوجه إلى الحمام ليواري جسده تحت الماء الساخن، لمْ تكنْ شقته كبيرة، ولم تكن صغيرة فقد كانت تتكون من غرفتين وصالة ومطبخ وحمام وشرفة واسعة بعض الشيء، أعدَّ لنفسه كوبًا من القهوة السادة، وجلس على مكتب متهالك في جانب من الغرفة، نهض من مقعده، وسار إلى دولابه الخاص فتلاقت عيناه بشبح يظهر في المرآة. نعم، قد كان

انعكاسه في المرآة يبدو كشبح فنظر إلى الخصلات البيضاء التي غزت شعره فظهر كعجوز طاعن في السن، وهو لم يتعد الأربعين عامًا بعد! ونظر إلى عيناه الخضراوتان وبشرته الخمرية، كم كان وسيمًا جذابًا قوي البنيان، والآن أصبح ضعيف الروح، والجسد! فابتسم ابتسامة حزينة، وانحنى ليلتقط صندوقًا متوسط الحجم من دولابه، ويعود ليجلس على مكتبه مرة أخرى، أخرج لفافة بيضاء من الصندوق ظهرت منها خصلات شعر بنية فقربها من أنفه، وأغمض عيناه واستنشقها بقوة، فلامس جفناه بعضهما البعض؛ فسقطت دمعة كانت قد تحجرت في عينيه وسقطت رغمًا عنه، ثم تبعتها الكثير من الدمعات الساخنة، أعاد اللفافة بما تحتوي إلى الصندوق، وأمسك مجموعة من الصور وراح يقلب فيها حتى أمسك صورة تظهر شابًا وسيمًا يحتضن فتاة في ريعان شبابها عيناها بنية وبشرتها بيضاء وشعرها بني كلون البندق كان يحتضنها بشدة وكلاهمها يبتسم في حب واضح، قاوم دموعه تلك المرة وأمسك بصورة أخرى تظهر فيها فتاة تحتضن بين ذراعيها مهرة بيضاء وتبتسم ابتسامة ساحرة، إنَّها هي نفس الفتاة التي كانت في الصورة السابقة. لمعت عيناه عندما نظر في عينيها، ولكن تلك المرة لمْ تكن تلمع بالدموع بل كانت تلمع بشيء آخر، إنه الحب، ولكنَّه سرعان ماتحول إلى ألم؛ فراحت دموعه تسيل كشلال، وعلا صوت بكائه فترك الصورة، وأمسك صورة أخرى يظهر فيها

نفس الشاب، ولكن يعلو ملامحه الحزن فقد كان يجلس بجوار سرير يرقد عليه شخص مريض يبدو أنَّها فتاة، وكان ممسكًا يدها والحزن واضح على قسماته ثمَّ نظر إلى صورة أخرى تظهر فيها فتاة يبدو على ملامحها المرض فكانت عيناها ذابلتان وجسدها نحيل، إنَّها نفسها تلك الفتاة الجميلة، ولكن يبدو أن المرض قد نال نصيبه منها، أطال النظر إليها وكتم بداخله أنينا قويًا. وأعاد الصور إلى الصندوق وأرخى جسده للخلف ليستند بظهره على الكرسي، أغمض عيناه ببطء ليفتحهما على ضوء خافت مصدره مصباح متدل من سقف غرفة يبدو أنَّها في مستشفى، وهناك فتاة نائمة على سرير، ويمتلئ جسدها بأسلاك متصلة بأجهزة كهربائية وهناك جهاز يظهر بداخله خط متعرج يبدو أنَّه نبضها، كانت كملاك نائم في سلام، فتح باب الغرفة ودخل شاب طويل ذو بشرة خمرية وعينان خضراوتان، اقترب من الفتاة النائمة، وجلس بجوارها وأمسك يدها وقبلها في رفق فشعر بأصابعها الصغيرة تضغط على يديه بضعف فنظر إليها ليجدها تجاهد لتفتح عيناها، حتى نجحت ونظرت إليه فاعتلت ثغرها ابتسامة لا تخلو من المرض فابتسم بدوره لابتسامتها، ومسح على شعرها في حنان قائلا: ستعودين لي، لا تخافي، ستتعافين وتعودين كما كنت، أنا بجوارك للأبد، لا تخافي. لاحظ أنَّها تريد قول شيء فاقترب منها ليسمعها تقول في خفوت أنَّها تريد رؤية القمر، لم يتعجب من

طلبها لأنه يعلم أنَّها مغرمة، وعاشقة للقمر فمال عليها وقبل جبينها ونهض وأحضر مرآة وقال لها: انظري هنا وسترين القمر. ابتسمت لمغازلته لها، ولكن عندما نظرت انهمرت دمعاتها فأدرك أنَّها حزنت على شكلها، وجمالها الذي سلبه منها المرض؛ فأخذ المرآة منها واحتضنها في رفق وأخبرها بأنَّه سيجيب طلبها، ساعدها لتنهض من الفراش حتى جلست لكنَّها كانت تتألم مع كل حركة تتحركها، فحملها ووضعها ع الكرسي المتحرك، وخرج بها إلى نافذة الغرفة، جلس على الأرض بجوارها، وراح يتأمل برائتها وغرق في سحر عينيها التي تنظر للقمر بشغف، كانت هي شاردة في القمر وكان هو شاردًا في عينيها، الهواء يداعب شعرها فتتطاير خصلاته، وتلامس وجهه ؛ فيبتسم، ظل ينظر إليها حتى خانته دموعه التي انهمرت دون أن يدري فانتبهت هي إلى دموعه فتركت القمر، واستدارت إليه، وظلت صامتة تحاول أن تتحلى بالقوة حتى وإن تصنعتها فهي اعتادت أن تمده بالقوة حينما يكون ضعيفًا وها هو الآن يبكي أمامها، ولكنَّها عاجزة عن مواساته لأنها تعلم جيدًا أن مرضها ما يؤلمه، وتعلم أيضًا أن هذا المرض النادر الذي أصابها لا يمكنها أن تتعافى منه فهذا ما قاله الأطباء، نظرت إليه في حنان ومدت يدها لتلامس وجنته ومسحت عليها برفق، ووضعت رأسه بين كفيها ونظرت في عينيه، وقالت: سوف أبقى هنا، حتى وإن رحلت فلن أغيب عنك، ستشعر بي في كل مكان.

لم تكن أنهت جملتها حتى انفجر في بكاء مرير، ودفن رأسه في حضنها وتشبث بها فكان ما به من حزن، وألم أقوى بكثير من أن يتظاهر بالقوة ويتماسك أمامها، هدأته ثم عادت لتنظر للقمر فتذكر أنَّه يحمل لها شيئًا فأخرج من جيبه وردة حمراء رائعة الجمال ما أن رأتها حتى تهللت أساريرها فهي تعشق الورد، قربتها من أنفها واستنشقتها فتبللت الوردة من دموعها فأراد أن يلهيها، ويجعلها تبتهج فقال لها انظري إلى تلك النجوم واختاري واحدة فنظرت له، وضحكت وقالت بأنَّها لا تريد أن تفعل كما فعل الكثيرون من قبلها فهي ستختار السماء بأكملها بنجومها وقمرها فكلما اشتاق لها نظر إلى أي شيء في السماء وحدثه وستسمعه هي، كاد أن يتكلم إلا أن أوقفه صوتها، وهي تئن من الألم فقد أخفضت رأسها وأغمضت عيناها فلم تعد قادرة على التنفس، قام مفزوعًا وحاول أن يحدثها لكنَّها لم تستجب فحملها بين ذراعيه، وأسرع بها إلى الغرفة ووضعها ع سريرها ولكنَّها تشبثت به، وفتحت عيناها ونظرت إليه نظرة تتحدث بكلمات لن تستطيع كل لغات العالم أن تصفها، كانت مزيجًا من الألم والخوف وربما الوداع! ظلت متشبثة به حتى شعر بيداها ترتخي شيئًا فشيئًا وتسقط بجانبها، وتهدأ أعصابها، فارتخى جسدها على الفراش. شعر بضباب يملئ الغرفة أو فقط يملئ عينيه، لم يعده إلى وعيه إلا صوت الأطباء من حوله يحاولون فعل أي شيء وهو ممسك

بيدها ولكن قاموا بإبعاده عنها، فجاهد في التمسك بيدها إلا أنَّهم كانوا أقوى منه فجذبوه بقوة؛ فافترقت أصابعهما، وفجأة هدأت كل الأصوات من حوله فلم يكن يسمع أي شيء سوى صوت نبضها الذي رسم خطًا مستقيمًا ظهر على شاشة الجهاز، فقط كان يسمع صوت استقامة نبضها معلنًا النهاية بل الموت، صرخ صرخة شقت صدره، فتح عينيه مفزوعًا على إثر الصرخة التي صرخها ليجد نفسه جالسًا على مكتبه المتهالك في غرفته وأمامه كوب القهوة التي بردت، والصندوق الذي كان يتأمل محتوياته قبل أن يغط في النوم، ويرى أسوء لحظات عمره أمام عينيه فقد كان يراها يوميًّا كلما أغمض عينيه. نهض من مقعده، وكاد أن يخطو إلا أن لفت انتباهه شيئًا ما سقط على الأرض فمال والتقطه ليجدها تلك الوردة التي تحمل ذكرى من ذكراها تحمل دمعة من عينيها، فقد جفت الوردة وتهالكت إلا أنَّه يشعر بدمعتها فيها وكأنَّه يراها، بعد مرور خمسة أشهر، المقابر مزدحمة ورجال الشرطة يملئون المكان وهناك سيارة إسعاف، فجاء رجل وسأل الحارس المسؤل عن المقابر ما الذي يحدث فأجابهُ بأنَّهم قد عثروا على جثة رجل في الأربعين من عمره ذو بشرة خمرية وعينان خضراوتان، وجدوه وقد فارق الحياة وكان يحمل في يده وردة جافة، وجدوه بجوار قبر كان يأتي إليه يوميًا منذ قرابة خمسة عشر عامًا حتى فارق الحياة بجواره اليوم. وما الحب إلا سكن،

روح تسكن داخل روح، فلا تستطيع أن تفارقها ما دامت على قيد الحياة، ولم يستطع أي شيء على وجه الأرض، ولا أي قوة أن تفرق بينهما إلا قوة واحدة، قوة إلهية، وهي(الموت).
الحب بقاء حتى الفناء، الحب إخلاص ووفاء، الحب يسقى بالحب فقط، كالورد لا يسقى إلا بالماء.

تمت

موت الورد

أيقظتها حبات المطر التي تتساقط على وجهها، حيث كان المطر ينهمر بغزارة، ويتسلل من فتحات صغيرة في سقف الغرفة التي تفترش أرضها تلك الفتاة التي لم تبلغ من العمر سوى إحدى عشر خريفًا، نهضت من نومتها، وملابسها مبتلة من إثر الماء الذي صنع بحيرة صغيرة في غرفة احتوت بين جدرانها المتهالكة، والمتآكلة ثلاثة أرواحًا مزقتهم الأيام بقسوتها، الأم التي تُوُفِيَ زوجها بعدما هزمه المرض، وصرعه في أرضه، وهو خالي الجيب لا يملك قرشًا واحدًا يتركه لأسرته البائسة، وورد تلك الفتاة التي لم تخرج بعد من طور الطفولة التي لم تشهدها من الأساس، وزين الرضيع ذو الخمسة أشهر، والذي يعاني من حمى جعلته يبكي في الدقيقة ستون ثانية، استجابت ورد لنداء أمها بأن تحمل أخاها كي يكف

عن البكاء بينما ستذهب هي لقليل من الوقت، ولكن مضى الكثير من الوقت على هذين الطفلين ولم تعد الأم، وزاد صراخ الرضيع وخارت قوى ورد وأصابها الهزال، فلم تذق طعامًا منذ الأمس، تهللت أساريرها عندما سمعت صرير الباب يفتح معلنًا قدوم أمها فشعرت براحة عندما رأتها، وهدأ جوعها ظنًا منها أن الطعام قد أتى مع أمها، ولكن خاب ظنها عندما لم تجد شيئًا مما تخيلته! فلم تجد سوى دموع تحملها أعين أمها التي تحدثت بنبرة مختنقة تلوم نفسها لأنها فشلت في جلب طعام لصغيرتها، وفشلت أيضًا في إحضار دواء لرضيعها الذي يئن من الألم.

مرت أيام، والحال يزداد سوءًا حتى جائت الطامة الكبرى، توقف بكاء الرضيع، وسكنت حركته وفارقت الروح الجسد، فقدت الأم عقلها كما فقدت صغيرها فأصبحت تحدث نفسها، وتسير في الطرقات هائمة مضلة طريقها غير مبالية بابنتها الصغيرة، حتى وجدوها جثة هامدة تحت عجلات قطار البلدة، لمْ يكن هناك ملجأ لورد إلا ما يسمى في بلدتها -بالإصلاحية- وهي مقابل لدور الأيتام في مصطلحات المدن، تبنتها الإصلاحية، وعادت لدراستها حيث التحقت بالصف السادس الإبتدائي، وذات يوم بينما هي تلملم أشيائها في آخر اليوم الدراسي، كان هناك من ينصب لها فخًا، بعض زميلاتها اللواتي يحقدن عليها لذكائها وجمالها قد قررن تلقينها درسًا مريرًا، خرجت جميع الطالبات من الفصل

ولكن أغلقن على ورد الباب وذهبوا إلى مسكنهم، بينما ظلت الصغيرة تصرخ وتبكي وتطرق الباب بكل قوتها ولكن لا مجيب، فالجميع قد ذهب، هدأت عندما سمعت وقع أقدام تقترب من الباب فاطمئنت، فتح الباب لتجده معلمها الذي تخافه بشده لملامحه الصلبة وأسلوبه القاس، اختفت ابتسامتها وتبدلت بخوف وهلع عندما رأته يغلق الباب بدلًا من أن يحررها فعادت للخلف، وهي تبكي ولكنَّه لم يبالي بحبات اللؤلؤ المتناثرة من عينيها بغزارة، فتحول معلم الأجيال إلى ذئب شرس انقض على أرنبة هزيلة لا تملك الفرار، راحت تقاومه بيديها الصغيرتين إلا أن الشر بداخله كان أقوى فجردها من برائتها، ودفن طفولتها تحت قذارة فعله. وهذا كل ما يتعلق بورد، تلك الكلمات قالها مدير المصحة النفسية التي تتلقى فيها ورد العلاج منذ ثمان سنوات، قالها للطبيب المعالج الذي سيتبنى حالة ورد بعدما يأس منها جميع الأطباء في المصحة، وهو دكتور(ياسين) شاب في الثامنة والعشرين من عمره، تنهد ياسين بعدما علم كل شيء يخص تلك الفتاة، فاستأذن مديره وانصرف ليباشر مهمته الجديدة، وفي غرفة ورد، سحب كرسي وجلس بجوار سريرها، كانت عيناها مفتوحتان ومصوبتان للفراغ كعادتها، وأما ملامحها فكانت بريئة كملامح الأطفال، عيناها بنيتان وشعرها كستنائي اللون طويل مسترسل بجانبها مما زادها جمال، وبعد شهر كامل من محاولات كثيرة

ومرهقة لم تستجب ورد لأي منها، أخبره مدير المصحة بأنَّه أخذ فرصته التي طلبها وفشل وعليه أن يترك حالة ورد، ولكن ياسين أصر على إكمال مهمته وترجاه في فرصة أخيرة وأكد له أنَّه يشعر بشيء ما وأنَّه يقترب، وبعد كثير من الإلحاح وافق المدير، فكثف ياسين جهوده وأصبح يبيت في المصحة ويقضي معظم ساعاته بجانب ورد، يحدثها وكأنَّها تسمعه، ويجلب لها هدايا برغم صمتها المحبط. وذات ليلة كان جالسًا بجوارها فنهض فجأة وأحضر كرسي متحرك وحملها ببطء ووضعها عليه وخرج بها من الغرفة، راقب الممر جيدًا، وتأكد أن المكان خاليًا تماما لأنه غير مسموح بخروجها من غرفتها، أسرع في سيره حتى وصل بها إلى حديقة المصحة، كانت كبيرة واسعة ويضيئها القمر المكتمل بدرًا، والجو رائعًا بنسيمه الخفيفة المنعشة، قطف لها عدة ورود ووضعها بين يديها المرتخيتان، وأخذها في جولة جميلة بين أزهار الحديقة حتى أصابه التعب؛ فجلس بجوارها ودفن رأسه بين قدميه واستسلم لدمعاته، وشعر بفشل ويأس، ولكنَّه تفوه ببعض الكلمات التي خانته وخرجت دون قصده، فبينما كان يحدثها كعادته قال: أنا لا أعالجك كمريضة لا أريد سوى شفائها كغيرك من مرضاي! ولكني أريدك أنت، أريدك معي، اعتدت على حضورك، وأشعر بروحك حاضرة معي دائمًا، رغم صمتك وسكونك، أريدك حية، تتحدثين، فقد أصبحت أقصى أحلامي أن أرى ابتسامتك، فأنا أدرك أنَّه لن

يوجد أجمل منها على الإطلاق كي أتمناه، أريد أن أسمع صوتك، أريدك معي، أتفهمين!! لن أتركك ولن أدعك تدمرين حلمي، لن أسمح لك بإبقائي مع جسدك الساكن، فقط لأنني أحبك، نعم، أحببتك دون قصد، وسأرغمك على الشفاء أتسمعين! قال كلماته تلك بانفعال شديد، وعبرات تتدفق من عينيه، نظر إليها ليجدها كما هي، وكأنَّها مجرد دمية. هدأ قليلا والتفت إليها لينهض ويعود بها إلى غرفتها وإذ بها تنظر إليه! تجمدت الدماء في عروقه، واتسعت عيناه، اقترب منها وراح يضحك كالمجنون ويقترب من وجهها ويحملق في عينيها ليتأكد أنَّه لا يحلم، نهض وتحرك أمامها ليجدها تتابعه بعينيها أينما تحرك؛ فصرخ، وراح يرقص ويضحك بهيستيريا كالمجنون، ثم جلس مقابلها وقال لها: تحدثي أسمعيني صوتك تحدثي أرجوك، وهي كما هي تنظر إليه، ولأول مرة يشعر بأنَّها حية، ويرى الحياة في عينيها، أمسك يديها وضغط عليها برفق وساعدها على النهوض، فكانت صدمته الثانية، قامت معه ووقفت على قدميها، ولم يمض خمس ثوان وسقطت ورد فاقدة الوعي، ففزع وحملها بين ذراعيه وأعادها إلى غرفتها. في غرفة خافتة الضوء دخل رجل عجوز على مشارف الستينيات من عمره، وتحدث إلى فتاة شابة تجلس على مكتب يبدو عليه القدم، وسألها: ماذا تفعلين يا ابنتي؟ فقالت: أنهيت قراءة مذكراتك يا أبي والتي جذبني عنوانها: (أميرتي النائمة)

فظننت أنَّها حبيبة سابقة لك، ولكني أدركت أنَّها أمي، فتبسم لها واحتضنها بين ذراعيه، وقال: أنا لم أحب طوال عمري امرأة غير والدتك ورغم أنَّها فارقتني منذ ثلاث سنوات إلا أنَّها معي في كل ثانية، وأنتِ يا ابنتي قطعة منها تشبهيها تمامًا، فكلما نظرت إليك كأنني أراها أمامي، عشنا معا ثلاثون عامًا من الحب والسلام، حتى أمر الله بأن تفارقني ولكنه عوضني بك وهي أيضا قالت لي أنها ستكون حاضرة دوما معنا، وقالت لي أن أخبرك بأنها تحبك وستشعرين بها حولك في كل مكان كما أشعر بها حولي الآن، مسح كلاهما العبرات المترقرقة على وجنتيه، واحتضنا بعضهما بعد أن أغلقا مذكرات العجوز، وأعادوها في صندوقها القديم.

تمت

القلب الملعون

تتسارع أنفاسها، والرعب متملكًا من كل خلية فيها، تركض بسرعة، وتخشى أن تتعثر، لا يوجد حولها سوى شواهد القبور المغطاة بالتراب الأسود ونسيج العنكبوت، تشم رائحة الموت، والقمر مختبئ خلف الغيوم فلا نور، ولا أمان، يفزعها نباح كلاب تقترب، فتسرع الركض خشية المواجهة، تركض يمينًا ويسارًا في حيرة وعدم اهتداء، تتعثر في بعض العظام الملقاة على الأرض فيقشعر جسدها، توقفت فجأة عندما أصبحت محاطة بدائرة من الكلاب السوداء الضخمة، عيونها حمراء كلهب مستعر ولعابها اللزج يسيل بشهوة لتلك الفريسة، تركض بكل ما أوتيت من قوة وتلاحقها الكلاب مزمجرة، وينتهي الكابوس عند نفس المشهد كل ليلة عندما تصحو مفزوعة مستغيثة صارخة، تتصبب

عرقا، فيلتف حولها جميع من في المنزل، وتعتلي ملامحهم تعابير الأسى والحزن، تقترب منها والدتها وتخبئها في أحضانها، فتخبرها أنَّه نفس الحلم الذي يطاردها كل ليلة، لأن صوت الأم وقالت في شيء من التودد: بنيتي، زاد الأمر عن حده، ألا ترين كيف أصبحتي!

- يا أمي صدقيني، سأكون بخير.

- صدقتك كثيرًا، ولكن طفح الكيل، لن أسمع منك كلمة أخرى، يا ابنتي دعينا نذهب للشيخ مفتاح، رجل مبروك وشفاك على يده.

- تقصدين رجلًا دجالًا نصابًا! الشفاء بيد الله، ورجاءً لا تحدثيني في هذا الموضوع ثانية.

- ونعم بالله بنيتي، ولكن هناك أسباب، فشفاءك سيكون على يديه، دعك من مفتاح، دعينا نذهب لشيخ آخر أخبرتني عنه جارتنا، تقول أنَّه شيخًا جليلًا.

- لا مفتاح، ولا غيره! أنا لست ممسوسة ولا بداخلي عفريت، ومن الجيد أن تتركوني وحدي الآن، أريد أن أنام، وأعتذر لأني أزعجت نومكم.

خرج الجميع يجرون أذيال الخيبة، فكان الجميع متفق مع الأم إلا ابنها (هاني) الذي يدرس علم النفس في كلية التربية، ويرى آراء أسرته بشأن أخته خرافات، ويسند الأمر للطب النفسي، (هند) فتاة في الثانية والعشرين من عمرها تدرس في كلية الآداب جامعة

المنصورة، تعيش مع أسرتها في بلدة شبه ريفية، تتكون أسرتها من أمها، وأبيها، وأخواتها (هاني) أصغر منها بعام، و(هالة) أختها الصغيرة ذات العشرة أعوام،عثرت على فرصة عمل جيدة في إحدى شركات التجميل في القاهرة، وبعد كثير من المحاولات أقنعت أسرتها بالسفر إلى القاهرة لمباشرة عملها، وقامت بالتحويل إلى جامعة القاهرة أيضًا لتكمل عامها الأخير في الجامعة، وقدمت في السكن الجامعي للطالبات، جرت الأمور على ما يرام فكانت تحضر ما تحتاجه من محاضرات، وتنصرف إلى عملها وتسافر بلدها في أيام الجمعة والسبت، لم يراودها ذاك الكابوس منذ أن انتقلت إلى القاهرة حتى أنَّها ظنت أن المشكلة كانت في أجواء البلدة والمنزل، ولكن خابت ظنونها حينما عاد إليها الكابوس بنفس تفاصيله فكانت تستيقظ، وهي تصرخ فهرعت إليها زميلاتها في الغرفة، وقاموا بتهدئتها، تكرر الأمر يوميًّا حتى سئمت بعض زميلاتها منها وغضبت منها واتهمتها بالجنون، ولكن صديقتها المقربة في السكن احتوتها ولم تبال بما يقال، بل كانت خائفة عليها وتريد مساعدتها، فقالت لها في رفق:

- ما تمرين به ليس طبيعيًّا، أنا خائفة عليك!

- لا تقلقي أنا بخير، ربما ضغط الدراسة، والعمل.

- أكان ضغط دراسة، وعمل أيضًا وأنت في بلدك قبل مجيئك القاهرة!!

- من الذي أخبرك؟
- والدتك.
- وبالطبع طلبت منك أن تقنعيني أذهب إلى الشيخ مفتاح صحيح؟
- في الحقيقة نعم، ولكني غير مقتنعة بذلك ولن أقنعك به ولكن سأقنعك بأن تذهبي معي إلى طبيبة ماهرة صديقة والدتي، وسوف تساعدك.
- أنا لست مجنونة!
- أنا لم أقل مجنونة، أنت بخير حال، ولكن جميعنا نمر بأزمات، ونحتاج إلى علاج وطبيب يساعدنا، وافقي رجاءً من أجلي.
وافقت هند، واتفقت هي وصديقتها على موعد يتقابلان فيه بعد العمل.
في مكتب الطبيبة الخاص جلست هند وعلا فطلبت الطبيبة من علا أن تتركهم قليلًا فخرجت، قصت هند مشكلتها على الطبيبة التي كانت تنصت بانتباه...
- هل هناك شيء آخر ترينه، أو تسمعينه غير ذاك الكابوس؟
- لا.
- هل تخافين من المقابر، أو مررتي بحادث له علاقة بأموات، أو كلاب، وأنت صغيرة حتى؟
- أخاف من المقابر، والأموات كأي شخص، وكانت الكلاب تركض

خلفي كأي شخص أيضًا ولكن ليس هناك حادث.
- حسنًا، انظري من الممكن أن يكون كل هذا مجرد فوبيا من تلك الأشياء، وأنت عقلك نشط بعض الشيء فيقوم بترجمة ذلك لك على هيئة تلك الكوابيس.
- صحيح، ويمكن أيضًا لأن المقابر كانت قريبة من منزلنا.
- حقًا! جيد أنت هكذا أكدتي لي تشخيصي لذلك سوف أكتب لك بعض المهدئات وبعض تمارين للعقل وتتابعين معي، وفترة قصيرة، وستتحسن أمورك إن شاء الله.
مر شهر ولم تر هند الكابوس فيه إلا مرات قليلة فشعرت براحة كبيرة وسعادة بالغة، ولكن من أين لها بالسعادة! لم تتم فرحتها فباغتها الكابوس مرة أخرى ولكن جاء مصاحبًا آلامًا شديدة في جسدها تستشعرها عندما تستيقظ، زاد الأمر عليها سوءًا وتدهورت صحتها فأخذت إجازة من العمل ولم تسافر بلدتها، وأخبرت أهلها بأنَّها لن تتمكن من السفر بسبب الامتحانات، لازمت الفراش عدة أيام فجسدها أصبح ثقيلًا وكأن علة ما استوطنتها، رفضت الذهاب لأي طبيب، كانت فقط تتناول المسكنات والمهدئات، حتى استنزفت قوتها بالكامل وسقطت في غرفتها فاقدة الوعي، نقلوها إلى المشفى وبقيت فيها ثلاث ليال تتلق العلاج حتى شفيت إلى حد ما وعادت لحياتها وعملها، كانت قد تعرفت على زميل لها في العمل يدعى (أحمد) يعرف

مشكلتها ويحاول مساعدتها...

- هند، لي صديق يدرس الطب النفسي، وأخبرته عن مشكلتك وقال لي أنَّه يعرف طريقة يساعدك بها.

- وما هي الطريقة؟

- ربما يكون الأمر صعبًا بعض الشيء عليك، ولكن الحل يكمن في تلك الصعوبة.

- لن يكون هناك أصعب مِمَّا أنا فيه!

- حسنًا، أنت لديك مشكلة مع الموت والجثث وتلك الأشياء فيجب أن تواجهيها.

- تريدني أن أذهب إلى مقابر صحيح؟

- قلت لك أنَّه طبيب ليس مشعوذًا كي يرسلك إلى المقابر، ستذهبين إلى المشرحة، وتواجهين خوفك أمام الجثث هناك

- حقًا! وهل فرقت المقابر من المشرحة، بالطبع لن أفعل!

- لا تخافي سأكون معك هناك انصتي لي رجاءً.

اقترب منها وأمسك يدها وضغط عليها برفق طالبًا منها أن تمنحه الفرصة، وتتركه يساعدها، لم تشعر براحة لطريقته ونظراته وسحبت يدها من يده بسرعة، وقالت له أنَّها موافقة، اليوم ستبيت وحدها في الغرفة فصديقتها علا سافرت اليوم لحضور فرح أختها، والفتاة الأخرى تركت السكن منذ أيام، تركت أنوار الغرفة مفتوحة، واستلقت على سريرها لتستقبل رسالة من أحمد

قرأتها: اعتني بنفسك جيدا، أعلم أن وحدك الليلة، إن احتجتي شيئًا أخبريني.
ابتسمت رغمًا عنها فهي تشعر باللطف تجاهه شاب ظريف ويبدو مهتمًا بها، تركت الهاتف، وأغمضت عيناها علها تحصل على قسط من النوم، ولو قليل، أيقظها من نومها صوت ما ففتحت عيناها ببطء، وتفحصت الغرفة بعينها فلم تجد شيئًا فعادت للنوم إلا أنَّها سمعت خطوات تمشي مسرعة في الغرفة، ففزعت، وجلست على سريرها، وتملكها الرعب، لفت انتباهها ظل خلف باب الغرفة من الخارج، وكأن هناك شخص ما يقف هناك، انتظرت أن يطرق الباب لعلها إحدى طالبات السكن تريد شيئًا، ولكن لم يحدث شيء ورأت الظل ينسحب بكل هدوء، ثمَّ عاد مرة أخرى، وفجأة طرق الباب بقوة شديدة عدة مرات متتالية بشكل أفزعها، وكأنَّه هجوم على الغرفة، وبدأ ضوء المصباح يرتعش، فتكورت على سريرها، وبكت في صمت ولم تصدر أي صوت، توقف الطرق فجأة، واختفى الظل مرة أخرى، ساد الصمت مدة ثمَّ سمعت صوتًا يأتي من الخارج، كانت الساعة الثالثة والربع صباحا والجميع نائمون، ركزت انتباهها فسمعت الصوت مرة أخرى، كان صوت فتاة تبكي في هدوء، وتصدر بعض الأنات في بكائها، ترددت ثم قررت أن تخرج إليها ربما هي في حاجة للمساعدة، سارت بخطى مترددة وخائفة وقلبها ينبض بسرعة شديدة، فتحت باب

الغرفة بهدوء، ووقفت في ممر الغرف، كان ممرًا طويلًا أنواره خافتة جدًا تسمح برؤية خيالات فقط، وفي نهايته سور يطل على الحديقة يدخل من خلاله الضوء نهارًا، ويظلم في المساء مع الليل، بحثت بعينها عن الفتاة التي تبكي ولكن لم تجد شيئًا فتوقعت أنَّها في غرفة من الغرف، كادت أن تعود لغرفتها ولكن سمعت صوتًا يشبه نباح كلب غضبان فارتعبت وتصلبت أطرافها ولم تقو على الحراك، الصوت يقترب ويختلط به صوت بكاء الفتاة، ولكن صاحبه الصراخ تلك المرة فبكت بشدة وحاولت أن تتحرك لتهرب إلى غرفتها لكنها لم تستطع، كادت أنفاسها تتوقف حينما رأت فتاة تركض بسرعة من أول الممر، وخلفها مجموعة كلاب سوداء كالتي تراها في الحلم، تركض الفتاة بسرعة، وتصرخ حتى تعثرت، ولحقت بها الكلاب وهجموا عليها في مشهد دموي مرعب جعلها تتبول على نفسها لا إراديا وهي ترى الكلاب تفتك بالفتاة.

وأخيرًا خرج صوتها فصرخت بشدة، ووضعت يدها على وجهها وانهارت في مكانها تبكي وتصرخ، سمعت ضجيج من حولها فنظرت لتجد الكثير من الناس حولها طالبات وعاملات ومسؤلات السكن والجميع على وجهه علامات الهلع، فارتبكت أكثر ونظرت حيث كان المشهد أمامها منذ ثوان فلم تجد فتاة ولا كلاب! سألتها المديرة ما الذي حدث، ولكنَّها لم تجب، تناثرت الأحاديث بين الطالبات واتهمنها بالجنون، مرت الليلة ببطء شديد حتى الصباح

فارتدت ثيابها، وأسرعت هاربة من المكان تطوق لرؤية الشارع وضوء النهار، كانت فاقدة للأمان بشدة، رن هاتفها وكان المتصل أحمد، اتفقا على المكان، وتقابلا واستطاع صديقه أن يدخلهم كلية الطب لتنفيذ الخطة، سلمت على صديق أحمد، شابًا يدعى (چورچ) قادهم نحو المشرحة، ووقفوا أمام الباب.

- أستاذة هند، أنا أعرف أنَّك خائفة، ولكن هذا هو المطلوب، ستجدين جثث خارج الثلاجات ستكشفين وجوههم وتلمسينهم، لا تبقي في الداخل أكثر من خمس دقائق ونحن سننتظرك هنا.

- لن أدخل وحدي بالطبع.

تحدث أحمد.

- ألا يمكنني أن أدخل معها، وسأتركها تفعل كل شيء وحدها؟

انفعل چورچ!

- لا يصح أن تدخل إلا وحدها، ونحن هنا بالخارج إن احتجتي شيئا سندخل لك، ما ستفعلينه نظرية في علم النفس ومجربة وناجحة جدًا.

ارتعشت يدها بشكل ملحوظ، وبدا عليها التوتر فاستعجلها چورچ.

- هيا ادخلي.

فتح لها الباب، وساعدها على التقدم فدفعها بهدوء للداخل وأغلق الباب، ظلت مكانها ثوان دمائها تتجمد ببطء، الجو بارد

جدًا، والأنوار خافتة بشكل مزعج، والرائحة مفزعة ثقيلة على النفس، رائحة موت، هناك الكثير من السرائر، ولكن خمسة منهم فقط تعتليهم جثث مغطاة بغطاء أسود غليظ، وعلى الأرض توجد دماء سائلة تدل أنَّها دماء جديدة تحت السرائر، استجمعت قواها، وقررت أن تنهي الأمر بسرعة لتتخلص من كل هذا العناء، اقتربت من أول سرير ورفعت يدها المرتعشة بشدة ومدتها ببطء لترفع الغطاء فكشفت وجه الجثة التي كانت لامرأة مسنة وجهها أزرق وعيناها مفتوحتان بشكل مرعب فعادت للخلف في خوف شديد لكنَّها تمالكت أعصابها، وتخطتها ووصلت للسرير الثاني، ودموعها تنهمر بغزارة، رفعت الغطاء لتظهر جثة لطفل في الثانية عشر من عمره تقريبًا، يبدو على وجهه وجسده آثار تعذيب اقشعر لها جسدها ، تذكرت كلمات چورچ أن عليها لمس الجثث، ابتلعت ريقها، ومدت يدها المرتعشة لتلمس الجثة، ببطء شديد تمد أصابعها في حذر، اهتزت أنوار المكان بالكامل مِمَّا زاد الأمر سوءًا، وتوترًا.

ازدادت سرعة جريان دموعها في صمت، وضعت يدها على صدر جثة الطفل فانقطع تيار الكهرباء، وأظلم المكان بالكامل، تصلبت أوعيتها الدموية، وشعرت ببرودة تسري من خصلات شعرها حتى أخمص قدميها، وبدون مقدمات أحست أنَّها ليست وحدها، كانت على يقين أنَّها ليست وحدها التي تتنفس في المكان،

أحست أن هناك ما يدور حولها في بطء شديد، لا تسمع خطوات، ولكنَّها تشعر أن الهواء يحمل شيئًا ما يلف في المكان، أرادت أن تصرخن ولكن كالعادة يخذلها صوتها ولا يخرج، حاولت أن تقرأ أي شيء من القرآن ولكن لسانها أصابه الشلل، ظنت أنها النهاية، وانتظرت الموت، ولكن التيار عاد مهتزًا ففتحت عيناها، وما زال الضوء يهتز، وما زالت تقف أمام جثة الولد الصغير، ركزت بصرها عليه، ومع اهتزازة قوية للمصباح الذي انطفأ، وأنار فجأة وجدت السرير فارغًا تلك المرة لا يوجد عليه جثة، وقبل أن تصرخ من الصدمة انقطع التيار بالكامل مجددًا، وشعرت بيد صغيرة تتحس شعرها في بطء، وتتسلل في خصلاتها وتلامس ظهرها وتضغط على كتفيها؛ فسرت حرارة شديدة في جسدها، تمنت أن تفقد الوعي، أو حتى أن تموت، ثم شعرت بالشيء الذي خلفها يتحرك ليصبح أمامها تمنت ألا تعود الكهرباء، تمنت ألا ينير المكان حتى لا ترى ما أمامها، ولكن الأشياء عادة تأتي عكس رغبتنا، عاد التيار فجأة وتلاقت عيناها بأعين بيضاء تماما يتخللها بعض العروق الحمراء، كانت جثة الطفل أمامها مباشرة يلتصق وجهه بوجهها، قطع الصمت صوت صرخة مفزعة صرخها في وجهها ربما تفقدها السمع فيما بعد؛ فانهار جسدها على الأرض وأظلم الكون بأكمله في عينيها، فتحت عيناها فوجدت أحمد بجوارها ينظر إليها بحزن وحنين، حاملًا يدها بين يديه، تهللت أساريره حينما رآها تفتح

عيونها:
- لا تخافي أنت بخير.
هربت من عينيها دمعة ثمَّ تبعتها أخرى فناولها منديلًا أخذته، واستمرت في البكاء فمسح لها دمعاتها، وحاول تهدئتها:
- ليس مهمًا أن تتحدثي فجورج أخبرني أنَّك غالبا سترين أشياءً غريبة بالداخل سيمثلها لك عقلك لأنَّك خائفة، وهذا ما حدث، فأيًا كان ما رأيته فما هو إلا تخيلات.
- تخيلات!! مستحيل...
لم تستطع أن تكمل، وانفجرت في البكاء مجددًا، مر شهر، وهي على حالتها بل تزداد سوءًا، تعاني من الأرق والكابوس ذاته، تهاتف أهلها مرة كل يومين في محادثة مقتضبة، كان أحمد يجاورها دائمًا فباتت تشعر بالأمان في وجوده، وأصبحت تبادر بالاتصال به وطلب رؤيته، حتى أصبحا قريبين من بعضهما البعض كل منهما يمثل جزءًا منيرًا في حياة الآخر، وذات ليلة ودعها أحمد أمام سكن الطالبات، وكانوا على اتفاق بالمقابلة غدًا لزيارة طبيب نفسي كبير بعد محاولات مرهقة من أحمد ليقنعها، صعدت إلى غرفتها، والتي ما زالت فارغة بعد أن تركتها علا لتستقر في بلدها، ولم يأتي أحد ليسكن معها في الغرفة بعد، بدلت ملابسها، وارتمت على سريرها بجسد مثقل كجبل نحت في صخره الكثير من الفؤوس فينهار رويدًا رويدًا، أغمضت عيناها لتتلقفها أحلامها الضارية،

رأت فتاة تشبهها كثيرًا، لا بل كانت هي نفسها بكل ملامحها، ولكن مشوهة بعض الشيء، وكأنَّها تعرضت لحريق، ترتدي فستانًا أبيضًا مفتوح الصدر، يظهر ذراعيها الصغيرين، به بقع دماء داكنة، كانت تلك الفتاة التي تشبهها تقف أمام سريرها، مبتسمة بشيء من التهكم والتحدي، شفتاها فقط التي تبتسم وبقية ملامحها تبدو صلبة قاسية وربما غاضبة، مدت يدها ذات الأظافر الطويلة الحادة ناحية صدرها، وغرستها في اليسار، وكأنَّها سكين مسنون فسالت الدماء من صدرها، وعبثت بيدها في الداخل ثمَّ أخرجت قلبها في يدها فملأت الدماء ملابسها والأرض بأكملها، وأصدرت أصواتًا محشرجة، استطاعت أن تميز من بينها همسا تكرر أكثر من مرة، ولكن لم تستطع معرفته، وتمييزه، ثم ظلت تلك الأخرى تضغط على القلب بيديها بعنف، وكأنَّها تعتصره بين أصابعها، تتعالى الأصوات التي تصدرها فاستيقظت هند تتسارع أنفاسها واضعة يدها على قلبها إثر ألم شديد شعرت به كوخزات في صدرها، توقفت أنفاسها حينما سمعت صوتًا محشرجًا يشبه الأنين فنقلت بصرها أماما في بطء لتجدها على الأرض كما رأتها في الحلم منذ ثوان، ملابسها دامية، وتزحف على بطنها بيديها في هدوء، وتجر قدميها خلفها وتتلوى على الأرض، وتصدر نفس الصوت، ولكن تلك المرة استطاعت أن تميز الاسم الذي تنطقه بصوت أشبه بالفحيح، كان الاسم (هالة) تشنجت هند في مكانها

فهي ترى نسخة منها في هيئة كائن غير حي تزحف أمامها على الأرض وتتجه ناحيتها في غرفة مغلقة، يعلو صوت ذاك الكائن وتقترب حتى وصلت لحافة السرير، فوضعت هند كلتا يديها على وجهها وانكمشت وهي تبكي برعب، ثوان وهدأ كل شيء،اختفى الصوت، رفعت يدها عن وجهها ببطء لترى الغرفة فارغة، ولا يوجد أي شيء، ازدحمت رأسها بالأفكار حول هذا الاسم الذي سمعته، فأختها الصغيرة تدعى هالة.

سافرت بلدتها محملة بأعباء ضعف ما كانت تحمله قبل الخروج منها، وعندما وصلت بيتها كان أول من سألت عنه أختها الصغيرة، وعندما رأتها احتضنتها بشدة، واطمئنت أنَّها بخير، كانت والدتها تنظر لها في شفقة فقد خسرت ما يزيد عن نصف وزنها وشحب لونها.

- ما زلت كما أنت يا ابنتي!

حدثت أمها عن الحلم العجيب الذي رأته، واسم هالة الذي رددته تلك التي تشبهها في غرفتها ليلًا، فتغير لون والدتها وظهر عليها التوتر مِمَّا جعل هند تسألها:

- ما بك؟

- لا شيء

- هل هناك شيئًا لا أعرفه؟

- اسمعي، هناك شيئًا أنت لا تعرفينه، ولكن بعد ما قصصتيه

يجب أن تعلمي.
- أسمعك.
- كان لك أخت توءم تدعى هالة، عندما كان عمركم عشر سنين حدث حريق في المنزل، وفي المشفى قال الطبيب أن واحدة منكن تشوهت، ولكن قلبها ما زال ينبض، والأخرى توقف قلبها، ولكن جسدها لم يصب بحروق كثيرة، فاقترح الطبيب أن ينقل قلب التي تشوه جسدها في جسد التي لم تصب بحروق، وأخبرنا أننا في كل الأحوال سنخسر واحدة منكم، عرفنا أنك اختنقتي بسبب الدخان، وأقنعنا الطبيب أن تكون التي ستعيش منكم هي التي نجى جسدها من الحريق حتى تعيش حياة طبيعية دون معاناة من أثر الحروق في جسدها.
كانت هند تسمع ودموعها تنهمر وأطرافها متصلبة لا تدرك ما تسمعه.
- ولكن أنا لا أذكر أن لي أخت، وعشر سنين أعتقد كنت مدركة!
- بعد الحادث حدث لك فقدان ذاكرة، فكنتي كأنك ولدتي بقلب وعقل جديدين، وعندما أنجبت أختك الصغيرة أسميتها هالة علها تعوض التي فقدناها.
- أنت قتلتوها!
- لا ليس كذلك.
- لا بل هو كذلك، كانت على قيد الحياة، وأنتم قتلتوها.

انتهى الموقف ببكاء شديد وصل لانهيار حاد، جعل الأسرة بأكملها تتذكر مأساة طفلتهم التي فقدوها، مع شعور بالذنب تجاهها بعد كلمات هند لهم واتهامهم بقتلها. كثرت تساؤلات هند، ما علاقة تلك القصة بما يحدث لها؟ الأم استطاعت أن تربط بعض الخيوط ولكنَّها تعجز عن مساعدة ابنتها

- يا ابنتي يجب أن نذهب إلى شيخ.

- مجددًا!

- نعم، مجددًا، انصتي لي، قبل الحريق تعرضت أختك لحادث في المقابر فقد هجمت عليها الكلاب، ومزقوا ملابسها فوقعت في قبر كان مفتوحا، ومن يومها وهي غير طبيعية تصرخ وتبكي بدون سبب، ذهبنا إلى الكثير من الأطباء والجميع يقول أنَّها لا تعاني من شيء، فذهبنا إلى شيخ قال أنَّها مست من الجن عندما وقعت في القبر، وبعدها حدث الحريق ونجى الجميع ولم نصب بشيء إلا هي، وكأن النيران كانت مسلطة عليها وحدها.

- ماذا تقولين، إنها طفلة!

- تلك الأشياء لا تفرق بين كبير، وصغير.

دخلت غرفتها، ورأسها مليء بالأفكار، كجيوش احتشدت في عمق عقلها، فشعرت أن سيوف المحاربين تفري في جدار رأسها بدلًا من جسد العدو، ارتمت على سريرها، واستعادت كل ما سمعته منذ قليل، بكت، شعرت أنَّها تعيش حياة ليست من حقها، شعرت

أنَّها استولت على حق شقيقتها، سلبت قلبها وحياتها، فكرت أنَّه من الممكن أن يكون كل ما يحدث لها انتقام منها، تذكرت حينما رأتها في غرفة السكن، كانت نسخة منها، تذكرت حينما رأتها تخرج قلبها من صدرها وتعتصره، تذكرت حينما سمعتها تردد اسمها، انقطع التيار فجأة، جلست مكانها، تأهبت حواسها، سمعت صرير باب غرفتها يفتح ببطء، ابتلعت ريقها بصعوبة، نادت على أمها ثم أبيها وأخيها، انتظرت أن تسمع جواب أحدهم فتطمئن أنَّه من فتح الباب، ولكن لا مجيب، شعرت ببرودة في أطرافها، وسمعت الباب يغلق بقوة أخافتها، ورغم الظلام الدامس، رأتها! تقف منحنية، شعرها مشتعل مما سمح لها برؤية وجهها، نصفه مشوه متآكل تظهر عظامه، تنظر إليها بعينين فارغتين، خاليتين من الحياة.

- أنا ليس لي ذنب، أعرف أنَّك ظلمتي، وأنهم أخذوا قلبك، وسرقوا منك حياتك، أعلم أنَّه كان من المفترض أن تكوني أنت التي تعيشين الآن ليس أنا، ولكن أنا ليس لي ذنب اتركيني وشأني.

وتعالى صوت بكائها، ولكن الأخرى كانت قاسية ربما لأنها دون قلب، رفعت يدها المشتعلة في هدوء وأصدرت منها أصواتا محشرجة، كانت هند تصرخ، وتبكي ولكن لا مجيب، تيقنت أنَّها ستموت الآن، اعتقدت أنَّه الوقت لترد الحق لصاحبته، اعتقدت أنها أتت لتأخذ قلبها، عادت لتنتقم، فرأت السرير يشتعل من

حولها وتزداد النيران، فتعالت صرخاتها مستغيثة، وما زالت تلك الأخرى تقف مكانها مشتعلة اليدين، سمعت هند طرقات على الباب، وصوت ينادي عليها، فتح الباب ورأت أسرتها تقتحم الغرفة في هلع وخوف، بعضهم أحضر ماءً ليطفيء النيران وبعضهم ألقى عليها غطاءً ليخمد ألسنة اللهب المتشبثة بقوة في سريرها وتقترب منها كثيرًا، نجحوا في إخماد الحريق فهرعت إليها والدتها واحتضنتها وهي تبكي، وتنتفض وتتصبب عرقًا، ومن بين كل هذا الهرج والمرج الذي في الغرفة رأتها تقف مكانها، ولكن لا ينتبه إليها أحد فربما هي فقط من تراها، أصروا عليها أن تذهب معهم لشيخ طاعن في السن يعالج بالقرآن، وتلك المرة لم تعترض بل وافقت دون نقاش، كان الشيخ في بلدة بعيدة عن بلدتهم فسافروا إليه، وجاء دورها فدخلت وحدها، كان رجلًا عاديا عكس ما توقعت، لا يرتدي عمامة، ولا يشعل البخور، ولا يلقي برماد ورق محروق في أكواب الماء، جلست أمامه وقصت عليه كل ما لديها، وكانت أمها قد أخبرته بالقصة من قبل، فأخبرها أنَّها في مأزق كبير، وأوضح لها أن شقيقتها ماتت، ولن تعود وليس لها علاقة بكل ذلك، ولا تريد الانتقام، ولا شيء من هذا، ولكن هناك من يريد الانتقام، ويمتلئ حقدًا وكره، فتعجبت لكلماته، وبدت عليها أمارات التساؤل، والحيرة، فأجابها قبل أن تسأل، وأخبرها أن من يظهر لها ويؤرقها هو قرين أختها، فعندما وقعت في المقابر،

وهي صغيرة ارتطمت بجثة مدفون داخلها سحر أسود لشخص ما، وبطبيعة الحال حدث لها مس من قرينها الذي كان يتجسدها لينشر الشر بواسطتها، ولأنهم توءم كانت هي تتأثر بكل ما يحدث لأختها، فذاك الكابوس الذي يزعجها كل ليلة كان هو ما حدث لشقيقتها عندما ركضت خلفها الكلاب في المقابر وهجمت عليها، فكل ذلك ما هو إلا تواصل بين عقليهما ومشاعرهما، وما يتجسد لها في صورة أختها فهو بقايا الشر التي ظلت عالقة في قلبها الذي تعيش به هي الآن، ويحاول ذلك الشر الاستحواذ على عقلها حتى يستطيع التمكن من جسدها، والدخول فيه كما تمكن من أختها، وأخبرها أنَّها إن لم تسرع، وتتخلص من ذاك الشر سيستوطن عقلها وقلبها وجسدها، وربما كانت نهايتها كنهاية أختها، تملكها الرعب من كلماته تلك، وسألته ما الذي عليها فعله كي تتخلص منه؟! فطلب منها أن تعطيه يدها، ترددت ثمَّ مدتها إليه فطلب منها أن تغمض عينها ثوان، ففعلت، فقام بوخزها بأداة حادة في يدها فتأوهت من الألم، ومازال هو ممسكًا بيدها، أحضر قطعة قماش قديمة، ومسح بها بعض الدماء من يدها، ثم لفها جيدًا، وكتب عليها كلمات مقطعة غير مفهومة، ثم غمسها في كوب من الماء، ولفها في شيء آخر ومدها إليها، فنظرت للشيء الذي في يده:

- ما هذا؟

- ما ستخلصين نفسك به.

- قالوا لي أنَّك تعالج بالقرآن ليس بتلك الأشياء!
- صحيح، وهذا فيه قرآن، لا تخافي أنا لست مشعوذًا.
اسمعي، ما سأقوله ليس فيه نقاشًا وليس له بديل، إن فعلتيه سترتاحين، وإن لم تفعلي فلا تطلبي مني أن أساعدك لأني لن استطيع.
- حسنًا.
- ستأخذين تلك التميمة، وتذهبين إلى المقابر المدفون فيها جسد شقيقتك، وتضعينها في جثة جديدة، يجب أن تنزلي القبر وحدك، وتفعلي ما قلته لك وتخرجي بسرعة لا تمكثين في الأسفل كثيرًا
- أنت تمزح معي بالكاد!! هذا مستحيل بالإضافة أن هذا حرام!
- كما تشائين!
دخلت والدتها، وأخذت التميمة وشكرت الشيخ ودست في الصندوق أمامه مبلغ من المال، وسحبت هند من يدها وعادوا إلى المنزل:
- اسمعي، إن كنتي تريدين أن يحترق المنزل كما حدث منذ سنين وماتت شقيقتك، وكما حدث أمس وكنتي ستموتين أنتِ أيضا، فلا تذهبي، ولا تفعلي شيئًا، ولكني لن أسامحك أبدا.
- حسنًا حسنًا، سأذهب يا أمي كما تريدين.
قالت جملتها بحزن، وأسى فهي لا تريد، ولكنها ستفعل! في منتصف الليل تقف هي ووالدتها ووالدها في مقابر العائلة،

تركتهم، وتقدمت مع حارس المقابر حتى وصلوا للقبر المنشود، كان الحارس يحمل قنديلًا خافت الضوء ربما كان عدم وجوده أفضل من وجوده في يده، الجو بارد جدًا، تلفح وجهها رائحة الموت، السماء ملبدة بالغيوم، والقمر مختف خلف السحب الضبابية، وضع الحارس القنديل على الأرض فاهتز نوره قليلًا، وأزاح شاهد القبر لتظهر سلالم تأخذك لأسفل حيث الظلام المثقل بالموت، وأشار إليها فتقدمت في هدوء تقدم قدمًا وتؤخر الأخرى، أشار إلى مكان الجثة الجديدة، فمدت يدها لتأخذ القنديل إلا أنَّه أوقفها، وقال أنَّه من الأفضل ألا تأخذه كي لا ترى ما يفزعها في الجثث، وضعت قدمها على أولى درجات السلم فسرت في جسدها قشعريرة شديدة، ابتلعت ريقها، وهبطت السلم، وكانت كلما تقدمت كلما تلاشى ضوء القنديل في يد الحارس بالأعلى ونور القمر أيضًا، كان المكان عبارة عن غرفة واسعة عالية السقف، مليئة بالأكفان التي كانت واضحة لبياضها، فمنها المهترئ ومنها الجيد، المكان مليء بشعور اللا حياة، استطاعت أن تميز الجسد الجديد الذي تريده، إلا أن لفت انتباهها كفن صغير مهترئ يظهر عظاما بداخله فتيقنت أنَّه هيكل أختها، اقتربت منه وهربت من عينيها دمعة ساخنة، وشعرت بحنين شديد إليها، تمنت لو لم تمت، تمنت لو كانت بجانبها الآن، أرادت أن تلمسها، أو تحتضنها لو استطاعت فهي جزء منها، والتي تعيش هي بقلبها الآن،

مدت يدها لتلمس رأسها، ثم تذكرت أخيرًا أن الشيخ حذرها من المكوث في الأسفل كثيرًا، فاتجهت نحو الجسد المنشود بخطوات متثاقلة،وتخيلت الكثير من الأمور السيئة التي يمكن أن تحدث في مثل هذا الموقف فربما استيقظت الجثة، أو امسكت بها كما حدث في المشرحة، استجمعت قواها وكشفت وجهها فكانت امرأة، فكت القماش قليلًا ومدت يدها، ووضعت التميمة ثمَّ أعادت القماش على وجهها، ولم يحدث شيء، استعدت للخروج، وما أن استدارت حتى اتسعت عيناها وشهقت بفزع، فلم تجد هيكل أختها في مكانه الذي تركته فيه منذ دقيقة! كادت أن تركض للخارج لكنها سمعت أنفاس سريعة جدًا تأتي من خلفها، ارتعدت ولكنها استدارت، وكأنَّها كانت تخشى المواجهة لكن تريدها أيضًا، استدرات لتراها تلك التي تشبهها بنفس فستانها الأبيض، تجلس مكومة في ركن من الأركان واضعة رأسها بين ركبتيها، وتبكي وتئن بأصوات محشرجة، فشعرت نحوها بالشفقة، شعرت لوهلة أن التي أمامها أختها وليست كائن آخر، كانت على وشك الاقتراب حتى توقفت عندما سكت البكاء، وساد الصمت فلم تكن تسمع سوى نبضات قلبها الذي يخفق بشدة، ورأتها ترفع رأسها لترى وجها غريبا عن الذي كانت تراه، وجها مفحمًا وعينان حمراوان كأنَّ بهما لهب مستعر، وأنياب سوداء، فلمْ يكنْ حتى شبح أختها الذي كان يظهر لها، كان كائنًا غريبًا، وكأنَّه أتى من الجحيم، ما

أن رأته خارت قواها وانهارت مكانها على الأرض، كالذي أصيب بالشلل، وتسارعت أنفاسها فرأته يتحرك ويحبو على قدميه ويديه كالحيوانات ناحيتها ببطء مرعب، يقترب منها، ولسانها كأن وضع عليه جبل فلا تستطيع النطق، ولا الصراخ وذاك الشر يقترب منها، ونباح كلاب يأتي من مكان ما، شعرت بدوار، وأصبحت الرؤية أمامها ضبابية، ومشوهة جدًا وشعرت أنَّها تفقد الحس والشعور تمامًا، ولكن عيناها ما زالت ترى ذاك الشيء يقترب، يلمسها فتنتشر حرارة شديدة في جسدها، ظنت أنَّه الموت، ربما هذا هو الانتقام، استسلمت للألم الذي اجتاحها، وأظلم الكون بأكمله في عينيها.

المنزل يسوده الصمت، ويخلو من الأصوات إلا صوت الأم تنتحب على ابنتها الراقدة على فراشها كالميتة، لا تتحرك، فبعد فترة من وجودهم في المقابر في تلك الليلة، سمعوا نداء الحارث يستغيث ووجدوا ابنتهم ملقاة داخل القبر فاقدة الوعي، ومنذ وقتها لم تنطق كلمة واحدة ولم تفتح عيناها حتى، فظنوا أنَّها تكرر ما حدث مع أختها قديمًا، وبعد منتصف الليل بينما الجميع نيام من الإرهاق، فزعوا على صراخ مخيف يأتي من غرفة هند فدخلوا ليجدوها ملقاة على الأرض تتلوى كالحية وتخرج من فمها سائل أسود غليظ، عيناها بيضاوتان تماما خاليتين من الحياة، وعندما حاول الأب حملها من على الأرض دفعته بقوة فجرحت رأسه،

حاولوا السيطرة عليها حتى وضعوها في سريرها، وهي ما زالت تصرخ وتضحك بهيستريا ثمَّ تبكي، فاستدعوا إمام المسجد ليقرأ لها بعض القرآن ليهدئها، فجاء، وما أن دخل عليها حتى خرج متوترًا، وأخبرهم أن في الداخل قوة شريرة هائلة استحوذت على جسد ابنتهم، فمن في الداخل ليست هند، فطلب منهم أن يضيئوا المنزل بالكامل، وقام بتشغيل سورة البقرة في كل غرفة في المنزل، ودخل عليها ليجدها تنظر إليه بتحد فبدأ يرتل الآيات ثمَّ يدعو ثم يذكر الله، وتلك تتلوى في مكانها وتقطع من شعرها بعنف وتخربش وجهها فتسيل منه الدماء ثم تعوي كذئب، استمر الوضع أكثر من نصف ساعة، والإمام يقرأ القرآن بصوت جهوري حتى هدأ كل شيء، هرعت الأم نحو ابنتها الملقاة على الأرض محاطة بسائل أسود قاتم خرج من فمها.

بعد عدة شهور، منزل هند يعج بالزائرين وأصوات زغاريد تتعالى، كان أحمد يخطبها، وقد تعافت تمامًا من ذاك الشر الأسود، ولم تراوضها أي كوابيس مرة أخرى، ولم تر أي شيء يخيفها وعاشت حياة طبيعية كغيرها من البشر.

«الشر موجود في كل طريق،والعقل البشري يمكنه التصدي لأي قوة مهما كانت خارقة، العقل الضعيف يسهل السيطرة عليه من قبل البشر وغير البشر، والعقل القوي، محصن من كل استحواذ، لسنا وحدنا من نعيش على الأرض، ولكن وحدنا من نستطيع أن

نحكم ونتحكم!...»

تمت

لم يمت من أجل سمكة!

وضع في جيب بنطاله العشرة قروش التي أعطاها له والده ليشتري المسامير التي يحتاجها في عمله، فأخذ يتمايل في سيره بمرح مصبوغ بروح الطفولة التي بداخله، وعندما وصل للبائع دس يده في جيبه فسبحت يده في الفراغ بداخله، لم يجد النقود! أضاعها أثناء سيره، أصفر وجهه، وابتلع ريقه بصعوبة ونظر للبائع بنظرة تملؤها الخيبة، ثم انصرف. لملمت الشمس خيوطها من السماء معلنة غروبها، ولم يعد الصبي لمنزله، يبحثون هنا، وهناك بقلوب يأكلها الخوف على ابنهم الصغير، فكان المقرب لقلب والديه من بين إخوته الأربعة، وبعد ساعات من البحث وجدوه نائمًا مفترشًا الأرض واضعا تحته جريدة بالية مهترءة، لم يعنفه والده بل تعامل مع الموقف بحنكة وحنان.

إنَّها أسرة بسيطة راضية بما قسم لها من العيش، الأب والأم وأبنائهم الخمسة، يعيشون في غرفة واحدة، ولكن الرضا بداخلهم، والتعايش بالإمكانيات المتاحة لديهم وقناعتهم، جعلت تلك الغرفة كالقصر في أعينهم، كان الصبي طموحًا شغوفًا، تمنى

أن يحصل على عمل ليعين والده، وبالفعل عمل صبيًا في قهوة، وهو مازال في المرحلة الابتدائية، كان راتبه عشرة قروش في اليوم، مضى أسبوع على عمله في القهوة، وذات يوم بينما الصغير يعمل بنشاط، شاء القدر أن يؤلمه؛ فسقطت عليه الصينية التي يضع عليها أكواب الشاي الساخن، فتأوه من الألم الذي أصاب صدره، وذراعه اليمنى، فأمره أبوه بعدم الذهاب لذاك العمل مجددًا.

صغيرنا كان مغامرًا فضوليًا، وذات يوم بينما يلهو، ويمرح مع أخته الصغرى، أبرموا اتفاقًا مريرًا لو يعلمون، دخل معها في تحد مميت، ولكن بعين طفولتهم رأوه بسيطًا، قال لها إن أكلت ملعقة كبيرة من الفلفل الحار سيعطيها جائزة كبيرة، خافت هي، وطلبت منه أن يبدأ هو ويفعلها، فأخذ ملعقة الفلفل الأحمر الحار، وتناولها كاملة دون تفكير أو خوف، وما هي إلا ثوان قليلة، وكان يتململ في الأرض، ويتلوى متأوها؛ فهرع إليه جميع من في المكان، أخبرتهم أخته بما حدث، فنقلوه للمشفى، وخضع لعملية خطيرة ونجى من الموت بأمر ربه. انتقل إلى المرحلة الإعدادية، وتملك المرض من والده فأصبح طريح الفراش، فكان الصبي يعود من مدرسته يبدل ملابسه ويخرج للعمل، كان عامل بناء يحمل على أكتافه الصغيرة حمولات من الرمل وغيرها، رغبة منه في أن يساعد والده ببعض المال، استمر الحال كما هو عدة سنوات، كان صاحب العمل يعنفه، وأحيانًا يضربه كونه صغيرًا لا

يستطيع حماية نفسه، ولم يكن يخبر أباه كي لا يمنعه عن العمل كما فعل سابقًا، فكان يتحمل، اشتد المرض على أبيه حتى توفاه الله، فانفطر قلبه حزنًا على والده فكان شديد التعلق به. شق صدره حزنا عندما خطف الموت أبيه، ورغم أنَّه ليس أكبر إخوته إلا أنَّه كان أكثرهم تحملًا للمسئولية، كبر الصغير، ولم يعد طفلًا بل أصبح رجلًا وسيما، ذات يوم كان عائدًا من عمله فرأى امرأة تسير في الطريق، ويبدو أنَّها فقدت عقلها، فكانت تحاول تمزيق ملابسها، اقترب منها وحدثها بود ثمَّ اصطحبها معه إلى بيته، طلب من أمه أن تعطيه طعامه فأعطته سمكة صغيرة، كانت نصيبه من طعام اليوم، أخذ السمكة، وأعطاها للمرأة فأكلتها وظل معها وقتًا طويلًا يحدثها، ويحاول إخافتها لتتوقف عن تمزيق ملابسها، ثم تركها ترحل بعدما أكلت، وشبعت.

ويوم آخر رأى رجلًا عجوز ذو وقار، كان يبكي، ويبدو أنَّه تائها، فذهب إليه وعرف أنَّه مصاب بمرض الزهايمر، ولا يتذكر شيئًا، فأخذ منه محفظته، وأخرج هويته الشخصية، واستطاع الوصول لأحد أبناءه، وعرف منزله فأخذ الرجل إلى هناك، كانت فيلا كبيرة وأبناءه يبدو أنَّهم رجال أعمال أثرياء، قدموا له مكافأة مالية ضخمة مقابل إعادة والدهم ومساعدته، إلا أنَّه رفض أخذها رغم أنَّه كان في أمس الحاجة للنقود، ولكنَّه رفض أخذ مقابل لفعلته. طلبوه لأداء الخدمة العسكرية، كان الضباط هناك يستغلون

مهاراته، ويحملوه أعباءً كثيرة ليقوم بها دون مقابل، ضاق حاله، ولا يملك نقودًا، خطرت له فكرة عابرة، فعمته تسكن قريبًا من مكان خدمته العسكرية، تسلل ليلًا، وهرب من الضباط وذهب إليها، اقترض منها بعض المال، وعاد مسرعًا ولكن الحظ لم يحالف، اكتشف الحراس أمره وأمسكوه واتهموه بالتجسس؛ فسجن شهرًا كاملًا تحت ضغط ومعاناة قاسية.

وذات يوم كلفه أحد الضباط بأن يصحب سجينًا إلى النيابة لتتم محاكمته، فأخذ السجين من يده، وقبل أن يقوده للنيابة أخذه إلى منزله، وقدم له طعامًا وشرابًا وارتاحوا قليلًا ثم أخذه حيث أمر، ظل الرجل يبكي، ويدعو له طوال الطريق على كرمه، وطيبته، ومعاملته الحسنة له. أنهى خدمته العسكرية وعاد حرًا، كان هناك فتاة يحبها فأراد خطبتها، عمل، وجمع أموالًا، فاستطاع أن يشتري غرفة نومة صغيرة، واستأجر حجرة بجوار والدته وإخوته، وخطب فتاته بقطعة صغيرة من الذهب، تزوجا، وعاشا معًا بالقليل من الزاد. كان ماهرًا في مهنة الطباعة فدخل في مشروع مع رجل طلب منه أن يطبع له عددًا كبيرًا من الكروت لشركته، ورفض أن يعطيه أي نقود قبل أن يتم العمل، اقترض بعض المال ليتمكن من طباعة الكروت، وبعد أن أتمها ذهب للرجل ليسلمها له، ويأخذ أجره، ولكن الرجل تبرم، وقال له أنَّه لم يقم بطباعتها كما أراد، ولم يعطه أجره ولم يأخذ الكروت، انهارت

روحه واحترق من داخله حزنًا، فعاد لبيته، ورمى كل الكروت التي في يده في الهواء ليلتقطها الأطفال، ويلعبوا بها، أصابه اليأس في مقتل، فهناك الكثير من الديون فوق عاتقه، ولا يملك نقودًا كي يتخلص منها، بجانب سوء حظه في عمله، ورغم كل هذا الحظ العثر، إلا أنَّه لم يرض يومًا واحدًا أن تتلوث يده بحرام، رزقه الله بطفل أعاد لعينيه بريق الحياة، وبرغم سعادته الجمة بقدوم صغيره كان الحزن يفتك به لتفاقم ديونه وازدياد مسؤلياته، باع غرفة نومه بنصف الثمن الذي اشتراها به ليتمكن من سداد بعض الديون، وزوجته تسانده، وتدعمه بكلماتها الرقيقة فتعينه على مر الحياة وشقاءها.
زاد من سعيه، وحارب من أجل جمع المال لأسرته، فأُمُّهُ كانت فقط تستطيع رعاية إخوته، فكان هو يعمل في أكثر من مكان ليحصل على المال، ثم رزقه الله بطفلة أخرى، أحبها حبًا جمًّا، وعزم على مواصلة السير ليرعى طفليه وزوجته.
كان جميل الملامح وسيما للغاية، شعره أسود كثيفا، وعيناه مكحلتان مليئتان بالسحر والجمال، كما كان يمتلك صوتًا عذبًا رقيقًا تطرب له الآذان وترتاح له النفس، يجيد العزف على العود، فكانت تمتزج ألحان العود بنغمات صوته في سيمفونية رائعة، كان أنيقًا رغم فقره، مبتسمًا رغم حزنه، واسع العطاء رغم حاجته. كان فريد الوجود بحق! غدًا أول أيام العيد، فكر بداخله هل

يبقي ما معه من مال للغد؟ فحتما سيحتاج نقودًا في أول أيام العيد، أم يسدد دينه أولى، فكان القرار أن يسدد دينه، وبالفعل دفع آخر دين كان عليه.

وفي صباح العيد كانت الأجواء مليئة بالفرحة، والتكبيرات، والملابس الجديدة وضحكات الكبار والصغار، اقترح على إخوته الرجال أن يذهبوا للصيد في مكان اعتادوه طيلة حياتهم، حمل صغيريه، وداعبهما بحب، وانهال عليهما بقبلات وعناق طويل، ثم ناولهم لأمهم، وطلب منها أن تعتني بهم جيدًا، وقبلها في جبينها برفق، ثم ذهب لأمه فقبل يدها، وتركهم ليذهب مع إخوته بالفعل. كان جيبه خاليًا من المال، لا يحمل سوى صنارة الصيد في يده، وبينما الجميع منشغل في الصيد والصمت يلف المكان، وكل غارق في محيط أفكاره، رأى الثلاثة شبان أخيهم يسقط على وجهه في الماء دون حراك، هرعوا إليه جميعًا إلا أن الماء كان أسرع فاختطفه، وانغمس جسده بالكامل تحته فغاب عن أنظارهم، صرخاتهم كانت تشق السماء، قفزوا خلفه لعلهم يستطيعون الإمساك به، ولكن دون جدوى فلا أثر له، استمرت محاولاتهم منذ وقت الظهيرة حتى غروب الشمس، وفي صباح اليوم التالي عثرت قوات الإنقاذ على جثته وأخرجوها، كان الجميع متعجبًا مندهشًا، والطبيب الذي رآه أظهر اندهاشه، فكيف لغريق ظل ليلة كاملة في الماء ولم تدخل نقطة ماء واحدة في جوفه، فالمعروف

في حالات الغرق أن الغريق يمتلىء بطنه بالماء، والأعجب والأجمل أن وجهه كان ضاحكًا وثغره باسما بشدة، وكأنَّه عريس يزف في الجنة.

كتبت الصحف، والجرائد بعدها أخبارًا عنه تقول: مات من أجل سمكة! وأنَّه انتحر بسبب سوء ظروف معيشته، ولكن ما علمناه عن هذا الغريق النبيل أنَّه لم يمت من أجل سمكة! ولم يلق بنفسه في النهر، بل انقضى أجله هنا!

مات وترك خلفه زهرتين لم تزهرا بعد، عاش بسيطًا مبعثرًا بين دروب الحياة ومات خالي الجيب، رحل في عنفوان شبابه، ولم يكمل عامه السابع والثلاثون حتى، غابت شمسه من الدنيا ولكن روحه وجميل صنيعه لا يزال حيا! فهو حي في قلوب جميع من أحبوه.

تمت

مني إليك

لامست وجهه رياح باردة من بقايا رياح الخريف الذي يتلاشى ببطء تاركًا للشتاء فرصته لينسج ثلوجه رويدًا رويدًا حتى يحين موعده، يقف على جسر خشبي تتهادى من تحته مياه النهر، تبدو هيئته هادئة، ولكن بداخله تتصارع الأفكار، وتصتدم ببعضها مسببة له ألمًا شديدًا، وصداع يفتك برأسه، كان عند الطبيب منذ قليل، أخبره بما لا يسر، أخبره بمرضه الذي ربما يفتك به، وربما يقضي على حياته، عاد إلى منزله يترنح كالمخمور، لكن خمره كان الألم، والخوف، رأته زوجته فهرعت إليه لتسانده، ساعدته ليجلس على مقعد قريب منه، جثت على ركبتيها ووضعت رأسه بين كفيها متفحصة عيناه كأنَّها تقرأ ما فيهما، وملامحها يغزوها الخوف والقلق، وما أن تلاقت الأعين انهمرت عبراته الملتهبة، فمسحتها بيديها بحنو، واحتضنته دون كلام، تشبث بها كطفل لقى أمه، كانت هي تعلم أن الأمر متعلقًا بمرضه، ولكنَّها لم تعلم بعد ما الذي قاله الطبيب، قررت أن تهدئه أولًا من ثورة حزنه تلك، ثمَّ

تسأله، فقالت له بصوت دافيء طالما بث فيه الأمان والطمأنينة دوما: يا حبيبي قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، لا تحزن ولا تيأس فلكل داء دواء، كان يستمع لها كالغريق الذي يبحث في كلامها عن شيء ينقذه، دخل غرفته، وظلت هي ملازمة له حتى نام بين ذراعيها، وما زالت عبراته تبلل وجهه، وضعت يدها على صدره وبدأت تتلو ما تحفظ من القرآن بصوت هادئ، وقلبها مفطور على حالته، والقلق يأكلها فهي لم تعلم بعد بما سمعه من الطبيب، يا رباه مسكين هو يحبك فلا تضره، ولا تحمله ما لا طاقة له به، يا رباه اجعلني أقاسمه الألم، ولا تودعه فيه وحده. هما الاثنين لم يتجاوزا السادسة والعشرين من عمرهما، شباب في عمر الزهور، يعيشان في سلام بما يقسمه الله لهما من رزق، يدبران حالهما بما لديهما، راضين بمر القدر وقسوة الظروف، زادهما هو الحب، عندما اشتد عليه المرض تقاعد من عمله، فكانت حرارته ترتفع بشدة، اجتاحه الوهن، ضعفت عظامه، جلست بجواره تغمس قطعة قماش في الماء، وتضعها على جبينه لتخفض من حرارته، أنهت ما تفعله، وكادت أن تقوم فأمسك يدها:

- سامحيني.

قالها بنبرة يشوبها البكاء.

- ماذا تقول! على أي شيء أسامحك، لا داعي لتلك الكلمات فأنا لست غريبة عنك، بل أنا لك، ومنك.

- أنا لا أدري ما الذي أفعله!
- لا تفعل شيء، أرح نفسك ولازم الدعاء وسيشفيك الله، لا تخف ولا تيأس.
مرت فترة والحال كما هو، يشتد عليه المرض، فينفطر له قلبها، حتى باتت تشعر بآلام تغزو جسدها، ولكنها كانت تتماسك حتى لا يلاحظ مرضها فيحزن، ولتتمكن من مراعاته أيضًا، لكن المرض لا يرحم، لا يشعر بشفقة على أحد، ولا يمهل مزيدا من الوقت؛ فداهمها بقوة فقامت من نومتها تصرخ من الألم، فزع هو من أجلها، حاول تهدئتها ففقدت الوعي، نقلها إلى المشفى بمساعدة أخيها، وهناك عنفهم الطبيب بشدة: لما انتظرتم كل هذا الوقت؟ إنَّها في حالة سيئة بعد أن تمكن منها المرض، سأل أخوها: أي مرض؟
- ألا تعلمون بمرضها؟
كان هو يرتجف خوفًا على زوجته، وخائف من الذي سيقوله الطبيب الآن.
رد أخوها على الطبيب: لم تكن مريضة، فقط في الأيام الأخيرة مرضت قليلًا
- مرضها ينتقل بالعدوى، لذا ستظل هنا فترة حتى تشفى.
اتسع فاهه لما سمعه، شعر أن الأرض تميد به، دخل إلى الطبيب بمفرده، أخبره بأنَّه مريض بهذا المرض أيضًا، ولكنه لم يكن يعلم

بأنَّه سينتقل إليها، غضب الطبيب بشدة: كيف!! كيف تعلم بمرضك، وتظل في منزلك، بجوار أسرتك! ألا تعلم أنَّه ينتقل بسرعة حتى من خلال الهواء الذي تتنفسه!!!

زوجتك ضعيفة، والمرض شديد عليها، كان يجب عزلك عنها منذ البداية. كان يسمع كلمات الطبيب وكأنَّها حجارة وصخور تتساقط من أعلى لتهوى على رأسه فيشعر بارتطامها في جسده، بكى بشدة وانتحب، حتى قام إليه الطبيب ليهدئه: كفى بني، كفاك نحيب فإنَّه دون فائدة.

- أنا بيدي من دمرتها، أنا من نقلت لها ذاك السواد اللعين، ما ذنبها؟ أذنبها أنَّها كانت تخدمني وترعاني، يا الله! صدقني أنا لم أكن أعلم بأنَّه معد! لم يخبرني الطبيب بهذا، لم يخبرني، وانهار باكيًا يلطم وجهه، والطبيب يحاول التخفيف عنه.

- الآن يجب أن تبقى أنت أيضا هنا، لحين شفائكما أنتما الاثنين.

مر أسبوع، والمشفى تطلب المزيد من المال مقابل بقائهما وعلاجهما، ولكن من أين؟ لم يبق معهم جنيها، فاضطروا على مغادرة المشفى، عادوا لمنزلهم، كان هو من يساندها تلك المرة.

- اسمعيني صغيرتي، أنت ستظلين هنا، وأنا سأذهب إلى مكان آخر حتى نشفى.

- أين ستذهب؟ ليس لديك مكان آخر غير هنا!

- لا تخافي أنا أعلم ما الذي سأفعله.

- لا، لا تتركني وحدي، نحن الآن مريضان، ولن نمرض أكثر من هذا، فلنبق معًا وليحدث ما يحدث، تكون أمامي فاطمئن عليك.
- لن نشفى هكذا.
- لا، تفائل، وسنلتزم بالدواء، وقريبًا سنتعافى سويًّا بإذن الله، صدقني.

بقى معها يساعدان بعضهما البعض، ولكنَّها كانت تضعف كل يوم ويتناقص وزنها ويشحب لونها، حتى أصبحت لا تقوى على النهوض من سريرها، وتزايد فقدانها للوعي كثيرًا، فلم يستطع الصبر أكثر، وأخذها لمشفى حكومي يناسب ما في جيبه، وهناك كان المشهد المعتاد في أي مشفى حكومي، مرضى هنا وهناك، متكدسون فوق بعضهم البعض، كان ممسكًا يدها وشقيقها بجانبهم، كانت تمشي ببطء شديد، وجسدها من يراه يحسبها طفلة صغيرة، وليست امرأة شابة، فالمرض قد أكل من جسدها ما استطاع أن يناله، أجلسها على مقعد خشبي منتظرًا أن يحين دورها للكشف، وبعد الكثير من الوقت جاء دورها فساندها، ودخل معها للطبيبة في الداخل، لم يكن حتى هناك مقعد يجلس عليه المريض ليبث شكواه للطبيب، بل يقف أمامه يقول ما لديه ليأخذ ورقة بها بعض الأدوية الروتينية ويعود لمنزله، أخبر الطبيبة بكل شيء فثارت الطبيبة وتعالى صوتها، مِمَّا جعل الخوف يتسرب إليهما من كلماتها، وبعد الكثير من الحديث الحاد بينهم،

قالت لهم بأنَّه يجب عزلهما عن بعضهما البعض، إن أرادا العيش يبقيان هنا في المشفى ولكن كل منهما وحده، لأنه إذا شفي أحدهما والآخر ما زال مريض، سيعود إليه المرض وأشد مما كان عليه، بكت هي وتشبثت بذراعه تترجاه بألا يتركها وحدها، فبكى هو الآخر وتوسل إلى الطبيبة ألا تفرقهما، كان مشهدا كالذي نراه في الأفلام السينمائية، مليء بالقهر والحزن والألم والحب، تعاطفت الطبيبة ولانت نبرة صوتها قليلًا، وحاولت إقناعهم بأنَّها تتحدث لصالحهما وأنَّه لا سبيل للشفاء غير ذلك: أنتما في دائرة الخطر، وربما الموت! آسفة لقولي ذلك، ولكن يجب عزلكما فورًا حتى تتعافيان أنتما الاثنان. أثناء حديثه مع الطبيبة شعرت هي بدوار شديد فحاولت التشبث بذراعه إلا أن قواها خذلتها فانهار جسدها على الأرض ليرتطم بشدة محدثا صوت طقطقة عظامها البارزة في الأرض، هرع إليها كل من في الغرفة من أطباء، وهو احتضنها ببكاء مرير، لم تفقد الوعي، كانت عيناها مفتوحتان تنهمر منهما الدموع بشدة ربما حزنًا على حالها، فقدميها لم تعد قادرتان على حملها، أحضروا لها كرسي متحرك، وأجلسوها عليه وهي لا تتحدث، فقط تبكي في صمت، نقلوها إلى غرفة بدائية الأثاث لتأخذ جلسة تنفس صناعي، والطبيبة ما زالت تحاول إقناعه: رأيت بنفسك حالها، ربما لا تعيش للمساء، أنا أصارحك! تركته واقفًا أمام الغرفة التي بداخلها زوجته، وكان شقيقها يواسيه

في الخارج، فظل يبكي غير مباليا بالناس من حوله، جثى على الأرض بركبتيه وراح يلطم وجهه بشدة ويبكي ويئن متململًا في الأرض: أنا المتسبب في كل ذلك، أنا، إن حدث لها مكروه لن أسامح نفسي أبدًا، كان يحدث شقيقها، ويجذبه من ملابسه، ويهزه وهو يبكي: إن حدث لها شيئًا سأمووت، سأنتهي، ألا تصدقني!! ليتني مت قبل أن أؤذيك حبيبتي، ليتني مت قبل أن تتألمين بسببي. كانت حالته يرثى لها للحد الذي جعل الناس من حوله تبكي على حاله، والجميع كان يواسيه ويهدئه، خارت قواه وكساه الصمت فجلس في الأرض واضعًا يده على رأسه، حتى أنهت جلستها، ورآهم يدفعونها بالكرسي المتحرك حتى وصلوا بها إلى غرفتها التي ستبقى فيها لتتلق علاجها، دخل إليها بمفرده، كانت مستيقظة موجهة بصرها للسقف تاركة لعبراتها العنان في صمت، جلس بجوارها، وأمسك يدها ومن ألمه الشديد الذي بداخله؛ ضغط علي يدها بقوة؛ فتأوهت؛ فتأوه هو الآخر، وأسند رأسه على رأسها فامتزجت دمعاته بدمعاتها، مدت يدها ومسحت له دموعه كما اعتادت، ودثرته في أحضانها، فزاد بكائه، ولم يقل.

- سامحيني.
- آه منك، أخبرتك أنني أكره تلك الكلمة، أنت لم تؤذني لأسامحك!
- كل هذا الألم الذي استوطنك، وتقولين بأني لم أؤذيك!
- أتعلم شيء.

- ماذا؟

- عندما مرضت أنت، كنت أدعو الله كل ليلة أن يجعلني أقاسمك الألم، واستجاب الله لي، وأنا فرحة بتلك الاستجابة، إنَّها إرادتي، وليس ذنبك.

- لماذا! لماذا فعلت ذلك؟

ألا تعلمين أن ألمك أنت يؤلمني أكثر من ألمي أنا ثمَّ إنَّك لم تقاسميني الألم بل أخذته أضعاف!

- هل ستبق هنا؟

- نعم، ولكن في غرفة أخرى.

- لأجلي أنا لا تحزن كل هذا الحزن، إنَّه قدري، وأنا راضية به.

استمر علاجهما شهور، والطبيبة أخبرتهم بأن حالتهم تتحسن، وهناك استجابة للعلاج، لم يكن يؤرق حياتهما سوى أنَّهم لم يلتقيان أبدًا طيلة هذه المدة، فتلك كانت أوامر الطبيبة، شفي هو واستعاد صحته، وخرج من المشفى، وحصل على عمل، كان يزورها كل يوم ينظر إليها من بعيد دون أن يدخل إليها، وهي تحسنت أيضًا، طالت مدة علاجها إلا أنَّها تتحسن، وبعد فترة أخرى من الفراق شفيت تمامًا وعادت لها عافيتها، لم يعد هناك حاجز بينهما الآن، هي أثبتت وفائها وإخلاصها له في تلك المحنة وتحمل كل شيء أصابها، وهو أثبت حبه لها وتقديره لمكانتها في حياته، انفكت العقدة وتلاشى الضباب، أنجبا طفلا جميلا،

مزروعًا بداخله كل هذا الكفاح والصمود والتمسك، عاشا حياة طبيعية هادئة، ربما لولا تلك الأزمة لما وصلا لتلك الحالة من التناغم والحب والسلام.

تمت

عد كما كنت غريبا!

أيقظها شعاع شمس تسلل من نافذتها إلى عينيها يداعبها بسذاجة فوضعت يدها على عينيها لتتفاداه ، اعتدلت في سريرها لتجلس مسندة رأسها على حافة السرير، واحتضنت وسادتها بين ذراعيها وتنهدت تنهيدة حارة ، تفحصت غرفتها بنظرة يشوبها الحنين ، نظرت إلى المكتب الرابض في ركن من أركان الغرفة ، تذكرت حينما كان يجلس هنا، وأمامه كوب القهوة التي يدمنها ، يرتدي نظارته، ويتفحص أوراقه التي تحمل بين طياتها كلماته التي يخطها فيها كلؤلؤ منثور في الورق، تذكرت حينما كانت تتسلل على أطراف أصابعها من خلفه في بطء لتنقض عليه فجأة، وهو غارق في محيط أفكاره، فتفزعه بفعلتها ثم تلف ذراعيها على عنقه، وتهمس في أذنه (أفزعتك مجددًا) وتتعالى ضحكاتها فيجذبها من خلفه بعنف يكسوه اللطف، ويقرص أذنيها كنوع من العقاب فتتصنع البكاء فيدثرها في أحضانه وكلاهما يعلم أنَّه يمزح مع الآخر. أعادها من دوامة الماضي صوت جرس الباب فقامت، وارتدت ثوبًا يغطي جسدها، وفتحت الباب لتقابل

الفراغ أمامها، تعجبت وأخرجت رأسها من الباب ونظرت يمينًا، ويسارًا فلم تجد أحدًا، كادت تغلق بابها إلا أن تعثرت عيناها في جواب ورقي ملق على الأرض أمام الباب، أخذته وأغلقت الباب وتحررت من ثوبها الطويل الذي يشعرها بالاختناق وجلست على الأريكة وما زال الجواب في يدها ولكن لم تفتحه، نظرت إليه وحدثت نفسها في صمت: ليتك كنت من قلمه، ليتك كنت منه، ليت كلماتك وأحرفك من صنع يديه، ليتك رسالتي التي انتظرها منه، يا طفلي الضائع، يا حبيبي القاس، عساها تحن روحك لي، عساها تعود مشتاقة، فآه منك وآه من هجرك، وآه من الطريق الموحش بيننا. أخرجت الورقة المدسوسة في المظروف وفتحتها، وترنحت عيناها بين الكلمات المخطوطة أمامها لتقرأ: «روايتي التي لم تنته بعد، وقصيدتي التي أعجز عن إلقائها، يا معزوفتي الهاربة ألحانها، يا من منك تشرق شمسي فأحيا بأنفاسك ولهيب عشقك، وصالك حلمي ورؤياك منيتي...».

تصارعت بداخلها المشاعر، فرحت بشدة لكلماته، وحزنت بعمق لكونه بعيدًا، لا تدري من أين كتب، ولم يخبرها حتى بأنَّه سيعود، رغمًا عنها تبدلت مشاعر الحنين بداخلها إلى غضب وحدثت نفسها بصوت مسموع يخرج من بين احتكاك أسنانها ببعضها: آه منك أيُّها الوغد، ما زلت تكابر وتتعجرف علي! أتريدني أن أزحف إليك، وعيناي تمطر دمعًا، أيُّها الأحمق أتتلذذ بعذابي هكذا!

ثمَّ لَانَ صوتها، وتهدبت نبراتها معلنة ضعفها فارتمت بظهرها على الأريكة في وهن: آه من قلبي، رغم قسوتك أحبك، أخبرني أين أنت، وسوف آتيك. اختطفها النوم ساعات، فاستيقظت وقد هدأت ثورتها فاتجهت نحو المطبخ تجر قدميها الثقيلتين، أعدت قدحًا من القهوة، وجلست في الشرفة التي تطل على بحيرة ساحرة ينعكس فيها ضوء القمر، وتلمع فيها النجوم، وكأنَّها سقطت من السماء في البحيرة، كانا قد اختارا هذا المكان عن عمد ليناسب خيالهما الواسع، كانت ليلة باردة، رياحها لطيفة تداعب خصلات شعرها الأسود الطويل فتتطاير في رقة، أخذت رشفة من قهوتها وتذكرته، كم كان يعشق القهوة، كم كان يفضلها كثيرًا في هذا الوقت من المساء، وفي نفس الشرفة فكانت تمتزج رائحة القهوة بأنفاسهما معًا، تذكرت ذاك اليوم السيء حيث رحل، ولم يعد، مرت بذهنها الأحداث يومها والخلاف الشديد الذي نشب بينهما:

- أخبرتك قبل أن نتزوج أنني لا أريد أطفالًا!
- يا حبيبي أشتاق لطفل من دمي، أطوق لسماع كلمة أمي.
- أنا لا أريد نقاشًا، أخبرتك ما لدي وكفى.
- لما كل هذا التعقيد؟ ما يضرك بوجود طفل، طفل واحد فقط، أرجوك...
- لا أنا لا أريد طفلًا ولا نصف طفل، ولك الاختيار إمَّا أنا وحدي، وإمَّا أن تبحثين عن زوج غيري يهديك طفلًا.

- أجننت!
ماذا تقول، وكيف لك أن تنطق بكلمات كتلك!!
أنا لا أريد سواك، ولكن غريزة الأمومة بداخلي تحرقني.
- حبيبتي، ألم تخبريني من قبل أنني طفلك!
هل كبرت بعينيك فأصبحت تريدين طفلًا غيري؟
أخرجي تلك الأفكار من رأسك، واكتفي بطفلك المدلل هنا.
- أنت دائمًا ما تستهين بمشاعري!
أتظنني حمقاء لأقتنع بهذا الهراء، وأصمت؟؟
قطب جبينه، واصطكت أسنانه، وتطاير الشرر من عينيه، فضغط على كفه بأصابعه كي يكتم غضبه الذي اشتعل كبر كان ثائرًا، ولكن الغضب كان أقوى من سيطرته؛ فرمى بيده كأسًا زجاجيًّا كانت على المنضدة أمامه فتهشم الكأس محدثًا صوتًا مزعجًا، جعلها تتوتر وتضع يدها على أذنيها، نظرت إليه في صمت، وملامحها مليئة بالخوف والحزن معًا والدهشة أيضًا من ردة فعله غير المعتادة، وسمعته يصيح غاضبًا تاركًا الغرفة متجها إلى الخارج ناحية الباب:
- طفح الكيل منك، قلت لك أنا لا أريد أطفالًا وهذا آخر ما لدي، وسأعيش هكذا طيلة حياتي، وأمَّا أنت فلك ما شئت من الأطفال فلتنعمي بهم وحدك.
قال كلماته التي خرجت من فمه كرصاصات اخترقت سمعها،

وتقطعت لها أوصالها ؛ فانهارت بجسدها في الأرض تذرف أنهارًا من العبرات الملتهبة، استوطنها الحزن للهجته القاسية تلك. خرج فانتظرت عودته، تأخر، فانتظرت ولكنَّه لم يعد، نعم، لم يعد حتى الآن، لا تدري أين رحل، لا تعلم حتى إن كان يريد الفرار منها فجعل تلك حجته وهرب، ولكن رسالته لها تقول غير ذلك، ومن دون رسالته تلك حتى، كل شيء يقول غير ذلك، إنَّه العاشق المتيم بها!

حارب من أجلها أعوامًا كاملة، وقضى معها سنوات طوال، لم يحدث بينهما شجارًا، وامتد لصباح اليوم التالي، كل الخلافات كانت تحل في وقتها، ما بينهما كان أكبر من كلمة حب، كانا روحًا واحدة، أنفاسًا واحدة، أفكارًا وتخيلات، وأحلام وانتصارات واحدة، ولكن كيف؟

كيف هانت عليه كل هذا الوقت؟ كيف تحمل غيابها وهو الذي لم يكن ليغمض جفونه إلا بين أحضانها!! كان يراسلها كل مرة من جوال مختلف فلا تستطيع الرد عليه، ثم تباعدت الفترات بين كل مراسلة، فقط كان يرسل لها كلمات تحثها على الانتباه لنفسها، كانت تلك الرسالة التي أرسلها مع ساع البريد اليوم الأولى التي يكتب فيها كلمات عشق كهذه منذ أن رحل.

مرت الأيام فالشهور، ولم يعد، ولم يراسلها حتى كعادته، أكلها القلق والخوف والاشتياق، حتى وصلتها رسالة أخرى وكانت

الأخيرة، كتب لها: «تركتك ليس لأني لم أعد أريدك، ولا لأني توقفت عن حبك، وإنَّما تركتك لتحصلي على ما تريدين، لأنني عاجز عن تلبية طلبك، أنا لا أنجب، وليس لا أريد أن أنجب، أنا مثلك تمامًا، غريزة الأبوة تفتك بي، أشتاق لطفل مني ومنك، ولكني لا أستطيع، لم أقو على إخبارك بذلك فأجبرك على العيش معي كي لا تجرحيني فتعيشين بحرمانك، وآلامك في سبيل راحتي، ولكن أخبرتك بأني لا أريد، رحلت لأترك لك فرصتك، تزوجي، واحصلي على الكثير من الأطفال، وأنا سأظل أحبك إلى الأبد، إلى آخر شمس تشرق في عمري، ستظلين أنت طفلتي، وحبيبتي، ومن سكنت وحدها سويداء قلبي، ستظلين وحدك من ينبض لها فؤادي ويرق لفراقها دمعي، أعتذر لك عن الألم الذي سببته لك برحيلي، ولكنِّي أقسم لك أنني لم أرحل إلا من أجلك، ومن أجل سعادتك، دمتي بخير دائمًا أبدًا، أحبك...».

صرخت ، انهمرت دمعاتها كشلال ثائر، تعالى صوت بكائها، وتمتماتها: أيُّها المجنون الأحمق، أتظنني سأسعد هكذا! إن كنت أريد طفلًا فلا أريده إلا منك، وإن كنت عاجزًا عنه فلا أريده أبدًا، لا أريد سواك يا أحمق، عد عد أو أخبرني بمكانك وسأقطع إليك أميالًا حتى أصلك، أجننت!! كيف؟

كيف لي أن أتزوج غيرك، كيف لي أن أرى سواك، يا أحمق، أجبني! انهارت، وانهار كل ما بداخلها، تيقنت أنَّها النهاية، فهي تعرفه

جيدًا، وتعرف صلادة رأسه، تعرف أنَّه سيفعل ما قال، سيرحل للأبد.

مرت الأعوام، ولم تستقبل منه أي رسالة، لا تخرج من منزلها سوى لشراء ما تحتاج، تحيا على ذكراه ، تفعل كل ما كانا يفعلاه سويًّا، وكأنَّه موجود معها، تكتب له وكأنَّه يقرأ، تقرأ كتاباته التي كان يكتبها لها، فتشعر أنَّها تراها لأول مرة، تبكيه، تناديه، تعانقه فقط في الحلم، تدعو له دومًا، لا يقل حنينها بمرور الأعوام بل يشتعل، يتزايد، يحرق الشوق وجدانها، كعلة لا دواء لها. واليوم تقف في شرفتها تؤرخ في مذكراتها كلمات بمناسبة مرور عشرون عامًا بدونه. لم يكن لها سواه في دنياها، وهو كذلك، بعد أن خاضا حروبًا ضارية من أجل أن يكونا سويًّا، تذكرت يوم زفافهما عندما انسلا من بين الجموع المنشغلة بالرقص والغناء، وهربًا من الزفاف كعاشقين مراهقين فارين إلى عالم آخر، حيث كانت أحلامهم التي رسموها فصعدا على متن سفينة كانت لهم وحدهم، أبحرت بهم من أول الليل حتى لمعت أولى خطوط النهار معلنة بزوغ الشمس من خدرها، فلم يكن أمام ناظريهما سوى ماء النهر المصبوغ بحمرة الشفق، والطيور التي تتمايل في السماء كأنَّها تتراقص في شجن، انفصلا عن العالم من حولهما، لا يوجد بشرًا ولا سيارات ولا أصوات سوى صوت أنفاسهما. تململت في جلستها في محاولة لمنع دمعاتها من التساقط ، يكفي قلبها

الذي يبكي ويئن كلما مرت عليه ذكراه، آه منك يا بعيدًا عن عيني مستوطنا روحي.

مرت الأعوام، وهي كما هي، لا تفعل شيء سوى الانتظار، تنتظر، ولا ينطفئ الأمل في روحها يومًا، تحيا على الذكرى، وكأنَّها فيلما تشاهده في مخيلتها كل يوم دون ملل أو كلل، شابت ملامحها، وظهرت انحناءات وجهها، وزحف الشيب على شعرها كنسيج العنكبوت فخبأ شبابه وكساه البياض، أصبحت عجوزًا ! نعم أهلكها الزمان فتهالكت، ربما أهلكها الحزن مبكرًا قبل أوانها. قامت في حركة بطيئة، وارتدت ملابس الخروج، والتقطت عكازها في يدها وسارت في الطرقات في آخر الليل، كانت تقصد وجهة بعينها، وصلت لمرادها، مكان صغير على حافة النهر يقدم مشروبات ساخنة مع بعض العزف على الكمان والأضواء الهادئة، إنَّه أول مكان عهدته قدميهما منذ أول لقاء بينهما، قضيًا فيه معظم أوقاتهما. خطت بضع خطوات، وجلست في مقعد منزوي بعيدًا عن الأنظار، وطلبت قهوتها المعتادة وسرحت بكل ما فيها في النهر أمامها تراقب القمر المنعكس فيه، شعرت بشخص ما يجلس بجوارها وسمعته يطلب قهوة أيضًا، ما أن سمعته استدارت لتراه، نعم كان هو، حبيبها الغائب، لم يصدر منها أي رد فعل، لم تندهش، لم تبتسم حتى، وكأن شيء ما قد انطفأ بداخلها، إنَّه انطفاء الشغف، لاحظ هو أن التي بجانبه تحملق

فيه فنظر ليتسع فاهه، كالذي دبت فيه الحياة دبيبًا، شاب هو الآخر وتجعدت ملامحه، كاد يحتضنها، وانهمرت الدموع من عينيه، إلا أنَّها ابتعدت:

- أنتِ! إنَّك هنا!

- نعم، أنا، أنا التي انتظرتك عمري كاملًا، ولم تعد!

- ألم تتزوجي؟

- أخبرتك أني لن أفعلها.

- كيف؟ ما عرفته أنَّك تزوجتي!

- لأنجب أطفالًا صحيح؟

ألم أخبرك بأنَّك طفلي! وأنني لا أريد إن لم يكن طفلي هو طفلك، لم تصدقني وتركتني ورحلت.

- رحلت من أجلك، من أجل سعادتك، رحلت وروحي لم ترحل معي، بقيت معك، أنا لم أتزوج حتى اليوم، ما رأيت سواك.

- وما الفائدة؟ أنت رحلت دون مبرر، تركتني وحدي، عمرًا كاملًا أنتظرك، أين السعادة في ذلك؟ أين تلك السعادة التي تتحدث عنها!!

لم تترك لي سوى الألم!

- حبيبتي، أقسم لك أنني ما رحلت إلا لأفسح لك الطريق لحياة فيها سعادتك، أردت أن يكون لك طفلًا كما تمنيتي، ولكن دعينا ننسى ما مضى، ها نحن الآن سويًّا، ها أنا قد عدت...

- ننسى!! يا ليتني أنس يومًا واحدًا، صحيح أنَّك عدت، ولكن عد كما كنت غريبا!!

تركته، ورحلت لتكمل ما تبق من حياتها وحدها، بدونه، هي من رحلت عنه تلك المرة، وتركته بإرادتها، كما أجبرها هو منذ زمن حينما رحل عنها رغمًا عن إرادتها، هي من اختارت الرحيل سبيلًا تلك المرة.

تمت

مسار
للنشر و التوزيع

جميع الحقوق محفوظة لدار مسار للنشر و التوزيع
يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب
بأية وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذالك
إلا بإذن كتابي صريح من الناشر

01020439639